

## الحياة الثقافية بأفريقية صدر الدولة الحفصية

عبد الحبيب بن الخوجة

إذا كانت المراكز الثقافية تخضع في تكوينها وانتظامها إلى عوامل سياسية واجتماعية ، يكون بها إيجادها وتطورها أو تقلصها وانحائها فان لانقسام البلاد الممتدة من طرابلس في الجنوب الشرقي إلى مراكش في الجنوب الغربي من شمال افريقيا ، ولانفصال الاندلس أو ما تبقى من الاندلس عن الدولة الموحدية ثم المرينية من جهة ، وللحركة البشرية المتمثلة في نزوح الاندلسيين إلى عواصم ومدن من بلاد المغرب ، وفي انتقال بعض العلماء والفقهاء بحكم وظائفهم وأعمالهم أو بسبب ظروفهم الخاصة من مدينة إلى أخرى في داخل الدولة أو خارجها من جهة ثانية . ما يحمل على افتراض قيام مدن وعواصم وسقوط أخرى ، أو — على الأقل — على تصور وجود جملة من المدن كثرت أو قلت تختلف في درجة الأهمية بحسب المقتضيات والملازمات الاجتماعية والسياسية المترتبة بها والمؤثرة فيها . ولعلنا حين نستعرض جملة من تلك المدن والمراكز في بلاد المغرب العربي نجد في القرن السابع/الثالث عشر ما يحملنا على ان نخص افريقية بالدرس والبحث باعتبارها أهم مراكز الاشعاع الثقافي في شمال افريقيا .

وطبيعي أن نذكر إثر التعرف على هذا المركز ما يكون قد توفر به من معاهد ومدارس ومساجد وشيوخ وعلماء وأدباء ونحو ذلك ، وما كان شائعا فيه من علوم وآداب وأذواق كان لها سلطان في ذلك العصر وأثر قوي أو ضعيف في المجتمع الافريقي ، وما كان لذلك المركز من إشعاع .

وإذا صدقنا كلمة بعض الرحالين في القرون الوسطى حين يقول : «ولولا أنني دخلت مدينة تونس لحكمت بأن العلم في أفق المغرب قد محي رسمه ، وضاع خطه وقسمه ، ولكن قضى الله بأن الارض لا تخلو من قائم له بحجة يرى سبيل الحق ويوضح المحجة . وما من فن من فنون العلم إلا وجدت بتونس به قائما ، ولا موردا من موارد المعارف إلا رأيت بها حوله واردا وقائما . وبها من أهل الرواية والدارية عدد وافر يحلو الفخار بهم عن محيا سافر ، وينير علمهم وقد ألفت ذكاء يمينها في كافر(1)» . تصورنا أن عاصمة افريقية هي المركز الاول في بلاد المغرب أو على الأقل في افريقية الحفصية . وهذه الشهادة لا تعني في الواقع أنه لا توجد مراكز أخرى حولها أو بعيدا عنها في بقية المغرب ، ولكنها تعني فقط اعتقادنا ان ما توفر بها من أسباب للنهضة الفكرية والثقافية كان أوسع وأعظم مما توفر لغيرها في هذه الفترة .

### المراكز الفكرية للدولة الحفصية :

تألف افريقية في العهد الحفصي من البلاد الليبية والبلاد التونسية وولاية قسنطينة جميعا . وبعد العهود الاغلبية والعبيدية والزييرية تحولت مدينة بني خراسان تونس إلى قاعدة دولة بعد أن كانت عاصمة ولاية . وشاءت تلك الظروف أن تنطمس أو تكاد أضواء القيروان والمهدية تاركتين لها ثقل المسؤولية في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة . وهكذا تقدمت تونس

(1) مارسى جورج : 95 ؛ العبدري : 42 .

في أكثر الأحيان مدينة بجاية التي نازعتها سؤدها وسلطانها العلمي الحضري ، وتركت وراءها مدنا كثيرة أخرى كان لها بعض المجد أو العمران أو الشهرة مثل القيروان وقسنطينة وفي درجة دونها بسكرة وتوزر وقابس وطرابلس .

ولسنا بقادرين في مثل هذه العجالة على استقصاء القول عن هذه المدن جميعها في القرن السابع/الثالث عشر خوف الاستطراد أحيانا والبعد عما نحن فيه أحيانا أخرى . ولكننا محاولون على كل حال الوقوف عند المدينتين الأساسيتين لهذا النظام وهما تونس وبجاية ، وعند العاصمة الاغلبية القديمة لاحتفاظها دائما باصول التراث الحضري الاسلامي وقيام عناصر نشيطة بها واصلت ، ولو قليلا . رسالة المتقدمين السابقين زمانا واحسانا في الميدان العلمي والثقافي الاسلاميين التقليديين (2) .

### تونس :

مدينة عتيقة أقدم من القيروان. كانت مقرا للبحارة وللتجار الفنيقيين في العهد القرطاجني ، عاشت مغمورة حتى الفتح الاسلامي . وبدخول العرب واستيلاء حسان بن النعمان على قرطاجنة 698/78 عادت إليها الحياة . واتخذت بها دار الصناعة ، وأقيم بها المسجد الجامع جامع الزيتونة . وظهر فيها تدريس الفقه وعلوم الدين الاسلامي كما ظهر في العهد الاول بالقيروان . فكان فيها المحدثان علي ابن زياد (3) وعباس ابن الوليد الفارسي (4) . وكثر العلماء والمحدثون والفقهاء بها حتى حمل ذلك أبا العرب التميمي في صدر الدولة العبيدية على وضع مصنفه العظيم في الترجمة لرجالها مع رجال القيروان : طبقات علماء إفريقية وتونس .

- (2) الحديث عن بجاية وغيرها من المدن الاخرى يأتي في دراسات لاحقة .
- (3) هو أبو الحسن علي بن زياد العبيسي التونسي . 880/183 . سمع مالكا وهو أول من ادخل الموطن إلى المغرب ، وعنه سحنون . انظر ابن أبي العرب : 220 - 223 ، عدد 115 ؛ مخلوف : 1 ، 60 ، عدد 33 .
- (4) أبو الوليد عباس بن الوليد الفارسي . 833/218 . محدث وفقيه . وصل إلى المشرق مع اسد ابن القرات ، لقي مالكا وجماعة من المحدثين . انظر ابن أبي العرب : 224 - 225 عدد 122 ؛ مخلوف : 1 ، 62 ، عدد 38 .

ثم أهملها الاغالبه ، وتعتمد ذلك العبيديون ومن خلفهم من الصنهاجيين .  
ولما غزا العرب الهلاليون إفريقية وقعت مدينة تونس زمانا في يد عابد ابن أبي  
الغيث أمير بني رباح 1054/445 . وللخروج من هذا الوضع والأمن على  
نفسها دخلت تونس بعد ذلك في طاعة الناصر الحمادي صاحب القلعة الذي  
أولى عليها من قبله عامله عبد الحق بن خراسان الصنهاجي 1059/451 . ثم  
لم يلبث هذا أن استقل بها إلى نهاية القرن الثاني عشر ، وأسس الدولة الخراسانية  
التونسية التي عاشت في النصف الثاني من القرن السادس/الثاني عشر . وقد  
بذل الأمير أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحق الخراساني كل جهد للعناية  
بهذه المدينة وترقيتها وازدهارها (5) . وبني القصر الذي قد يكون الجامع  
المعروف اليوم باسمه متصلا به ، والاسوار التي ذكرها الادريسي . ولم ترع  
بعد ذلك مدينة تونس غارات عبد الكريم البرغراغي 1199/595 وحكم آخر  
المرابطين يحيى بن غانية 1203/600-1204 حتى أعاد الحفصيون لها أمنها  
وسلامتها وزادوا في عمارتها واتخذوا منها قصبة لجيوشهم وقاعدة لدولتهم .  
وهكذا أقاموا خارج أسوار المدينة وغير بعيد عن القصر الخراساني  
« المجمع » الاداري والحكومي « القصبة » وابتنوا بجانبه الجامع الموحدى  
1233/630 .

وكانت تونس في عهد الحفصيين قرية في تخطيطها العام من شكلها  
الحالي الذي ازدادت به اتساعا وانتشارا . وكان بها سوران داخلي يحيط  
بالمدينة وخارجي يحيط بالأرباض الواقعة حول المدينة والفاصلة بينها وبين  
البراري . وتمتد مدينة تونس في اتجاهين شرقي غربي ، وشمالى جنوبي .  
ولأسوارها المحيطة بها فتحات . قال البكري هي خمسة أبواب . وقال ابن  
الشباط ولها في زماننا عشرة أبواب بعضها في البلد وبعضها في القصبة (6)

(5) ابن خلدون : 6 ، 164 .

(6) ابن أبي دينار : 10 .

واقصر ادرن Adorne في القرن الخامس عشر على ذكر الأبواب الستة للصور الداخلي . ولم يعد منها اكتوبر Octaper في القرن السادس عشر الاخمسة (7) . وقال ابن أبي دينار في القرن الحادي عشر/السابع عشر : « وفي زماننا لها سبعة أبواب ولم يبق في القصبة الا باب غدر ، وهو مغلق في هذا الوقت » (8) .

وهذه الابواب أو الفتحات هي للصور الداخلي من الشمال : باب السويقة الذي عنده سوق الفرنج الواقع قرب سيدي محرز . وكان قبل يعرف بباب السقايسن .

ومن الشمال الشرقي : باب قرطاجنة الذي يفتح على الطريق الواصلة بين مدينة تونس والعاصمة القديمة قرطاج .

ومن الشرق : باب البحر الذي يفتح على البحيرة بحيرة تونس وعلى الميناء .

ومن الجنوب الشرقي : باب الجزيرة . وهو مدخل أهل جزيرة شريك أو شبه الجزيرة التي تسمى الوطن القبلي أو الرأس الطيب إلى مدينة تونس . وفي الربع الاخير من القرن السابع/الثالث عشر أنشئت فثحتان أخريان من الجنوب من جهة الغرب هما : الباب الجديد وباب المنارة ...

ومن الشمال الغربي فتحة باب البنات تسمية لها بالقصر الذي ابتناه أبو زكريا لإيواء بنات ابن غانية الثلاث بعد قضائه عليه (9) .

أما السور الخارجي الذي يحيط بالمدينة من الخارج ويقع حول الأرباض المتصلة فهو لا يصل إلى الجهة الشرقية الواقعة على البحر ولكنه يحيط بالربضين

(7) دولاتي : 152 .

(8) ابن أبي دينار : 10 .

(9) برنشمين : 1 ، 340 - 341 .

الشمالي والجنوبي ، وتفصل بينهما القسبة التي يحميها هي أيضا سور له أبواب .

وقد أنشئت هذه الأبواب أو الفتحتان في أزمنة متعاقبة في القرنين الثامن والثاني عشر/الرابع عشر والثامن عشر .

وللربض الشمالي - ربض باب سويقة - أبواب عديدة هي باب الخضراء وباب أبي سعدون

ومن الجهة الغربية باب الأقواس بدل العلوج ، وباب المبروقي الذي كان يتصل ببرج الأونقي أو المورقي وهو برج ابن غانية المبروقي (10) .

وللربض الجنوبي - ربض باب الجزيرة - أبواب كثيرة أيضا هي باب عليوه ، وباب الفلاق - الذي حرف إلى باب الفلة - وتسميته في الأصل كانت باسم قائد حامية البلاد لابي هذبة محمد بن الفلاق (11) ، وباب القرجاني ، وباب خالد الذي كان يعرف بباب المنصور وصار بعد يدعى باب سيدي قاسم (12) .

أما القسبة أو المجمع الحكومي المنيع فله أبواب من الجهات الأربع . أولها من الجنوب غير معروف الاسم .

ومن الجهة الغربية باب غدر .

ومن الشمال باب الجبيلة أو الجبلية .

ومن الشرق باب أْتَنْجَمِيّ أو إِنْجَمِيّ من البربري إمين تجمّي بمعنى باب الدار . وهو الذي يدخل منه إلى المدينة . وبسقيف هذا الباب المحكم

(10) برنشفيق : 1 ، 340 - 341 .

(11) دولاتلي : 147 .

(12) برنشفيق : 1 ، 342 - 343 .

الحراسة سجن القصر . ومن ورائه ساحة كبرى اسارك (13) التي ابتليت بها قبة السلطان .

وداخل أسوار القصبة مبان فخمة كثيرة للسلطان واعوانه ووزرائه وجنده . ومن بين تلك المباني المدرسة التي يعقد بها الحفصي جلساته والمتخذة على غرار مدرسة قصبة مراکش (14) .

ولا تعرف لتونس الحفصية مسالك أو أنهج واضحة معروفة بأعلامها غير الطريقين الممتدتين من القصبة وجامع الزيتونة إلى باب البحر وما سواهما دروب وأزقة . وكل ما وصل إلينا من أسماء تلك المسالك « الطويلة » وهو نهج القصبة اليوم . ودرب سيدي بوحديد بالمدينة . ودرب الخضراء بباب الخضراء . وزقاق المرقب بباب المنارة .

وأهم الأحياء وأعمرها وأكثرها نشاطا وحيوية الأسواق . وأكثرها واقع حول محور المدينة وقلبها جامع الزيتونة الأعظم . فمن ذلك سوق العطارين . وسوق القماش . والقيسرية التي كانت مواجهة لسيدي ابن عروس وتحول قسم منها إلى سوق كانت تعرف بسوق الرهاردة (15) . وتقع في الجنوب الغربي لجامع الزيتونة أسواق الربع والقشاشين والصاغة . وفي جهة قريبة منها سوق الحجة وسوق الغزل (16) . وسوق الكتبية معروفة إلى اليوم . وكذلك الفكة التي هي في غالب الظن تغيير فاكهة . ومكان سوق البلغجية اليوم سوق الشماعين ومن ورائه سوق العزافين وسوق الفلقة مكان نهج الوصفان اليوم . وسوق الأبارين .

(13) الزركشي : 34 .

(14) برنشتيقي . 1 ، 343 - 344 .

(15) كلمة من اصل فارسي تكتب وينطق بها بوجهين رهادرة ورهادنة . يذكر بها في الداريجة العامة بتونس اليوم لفظ رهدان وهو مفردا الذي هو بمعنى انطقن الذكي انتصرف . وهي صفات عرف بها تجار الاقمشة الكثير والاسفار .

(16) برنشتيقي : 1 ، 345 ؛ دولاتي : 85 .

وللصناعات مراكز وأسواق أكثرها عند أبواب المدينة . فسوق السراجين عند باب المنارة ، وسوق الحدادين عند الباب الجديد ، والصباغين عند باب الجزيرة ، وسوق الحواتين قديما عند باب البحر . وفي بعض الساحات الكبرى نسبيا كانت تنعقد أسواق كالمعرض اين كان يباع العبيد ، أو بطحاء ابن مردوم ، وكذلك بالرېضين مثل الحلفاوين والتبانين ورحبة الغنم والمركاض وقيسرية باب الفلاق وسوق الغبار الذي كان يعرف مركزاه برحبة الطعام ورحبة الماشية (17) .

وإذا كان الأمن والرخاء متوفرين بإفريقية وبخاصة في تونس قاعدة الدولة في العهد الحفصي فلا بدع أن يكثُر السكان بها، ويقصد إليها الناس من الخارج . ولعل هذه الحقيقة هي التي ينطق بها حازم في مقدمة المقصورة ويلج عليها حيث يقول من مدحه للمستنصر :

« ملأت أياديه الدنيا من أمن وإيمان ، وحسن وإحسان ، وعدل وقسط ، وقبضت يده أرواح العداة بالقبض على الضبات ، وبسطت آمال العفاة بالبسط ، وأصبح النصر له مكتتبا بخط السعود وصعاد الخط » (18) .

وبدون شك كان لهؤلاء السلاطين عزم على النهوض بدولتهم والمفاخرة بها في كل ميدان . وكانوا ينازعون الدول المجاورة السيادة والتقدم وكانوا بحكم عهدهم الماضي بالاندلس والمغرب (19) ، وحسن تكونهم العلمي والثقافي (20) حريصين على أن يجعلوا من عاصمة ملكهم قبلة لرواد المعرفة والعلم والأدب ومركزا للإشعاع الحضري في ربوع شمال إفريقيا .

ونحن غير قادرين على تجسيم هذه الجوانب والحقائق الا متى تتبعنا المؤسسات الثقافية والمعاهد من جهة ، والرجال الذين لمعوا في هذه الحقبة وما كانوا به يظهرون ويتميزون .

(17) برنشفيق : 1 ، 346 .

(18) حازم : 9 .

(19) أيام ولايتهم النغور للموحدين .

(20) ابن الشعاع : 43 .



## المعاهد والمؤسسات الثقافية والعلمية :

من الضروري قبل الإشارة والحديث عن المعاهد والمؤسسات العلمية والثقافية في العصر الحفصيّ أن نذكر بأن للاتصال البشري وتبادل الآراء والإيجاء ببعض الأفكار والدعوة إلى جوانب من السلوك والتوجيه إلى شيء من المعارف أثرا معتبرا في النفس كان يحصل بين الناس وفي مجتمعاتهم أينما إلتقوا وحيثما وجدوا بالمساجد والمصليات . بالزوايا والجوامع ، بالمقابر وفي المنازل . بالسقائف والاسطوانات . فوق السطوح وبالاسواق ، عند أبواب الاسوار وفي الدكاكين والخوانيت . لكن هذه الاتصالات العامة لم تكن مقصودة لغرض معين محدود ، وإنما يحصل بها ما يحصل مما ألعنا إليه من التعليم والتوجيه في أغلب الأحيان بالعرض وبصورة كثيرا ما كانت عفوية . وإنما قصد التعليم أساسا وطلب ، واتجه من أجله رواد المعرفة والدارسون من طلبة العلم إلى أمكنة عامة دينية وخاصة تعليمية هي أولا المكتب أو الكتاب ، والزاوية وخاصة خارج المدينة ، والجامع أو المسجد ، والمدارس .

### 1 - المكتب أو الكتاب ، والزوايا

المكتب . وهو المؤسسة الأولى . قديم في بلاد الاسلام ومعروف من زمن الفتح الأول بإفريقية . وقد اشتهر باللفظ الثاني دون الأول الفصيح . ولا أظن أن كلمة الكتاب تحريف للمكتب إذ هو إطلاق لاسم الحال على المحل . وهذه المؤسسة أعم من أن تكون حرة أو رسمية لا يكاد يخلو منها حي أو درب من دروب المدينة . وربما وجدت داخل اسوار القصبة اين يتلقى أبناء السلطان ومن في سنهم من أبناء رجالات الدولة تعلمهم الابتدائي (21) فيها . يتعلم الاطفال الصغار الكتابة والخط أولا . ويستظهرون القرآن أو أجزاء

(21) برنشفيك : 2 ، 47 .

منه بكتابته في ألواح يمحون ما أثبت بها مساء كل يوم بعد عرض ما نقش عليها من الآيات والسور على المؤدب .

أ ومن الطبيعي أن يبدأ الطفل في الكتاب بتعلم الكتابة ورسم الحروف . فهو المدرسة الأولى التي يختلط فيها بالمعلم « المؤدب » . وهو مع الرسم والكتابة يتعلم الخط الذي كان له شأن في ذلك العصر . وقد ألفينا أصحاب الطبقات وكتاب التراجم لهذا العهد يعنون به عناية خاصة ويولونه من الاهتمام حظا زائدا . وقد أشار ابن خلدون إلى حال الخط بإفريقية لعهد . « فهو بعد أن كان مشرقيا تحول إلى أندلسي إلا في الجريد . وسبب ذلك أن أهل الاندلس لما تفرقوا في الأقطار بعد تلاشي ملك العرب ببلادهم وانتشروا في عدوة المغرب وإفريقية من لدن الدولة اللتونية إلى هذا العهد « القرن 14/8 » غلب خطهم على الخط الإفريقي ، ونسي خط القيروان والمهدية . وصارت خطوط أهل إفريقية كلتها على الرسم الاندلسي بتونس لتوفر أهل الاندلس بها وصار خطهم من أحسن الخطوط الاندلسية (22) » .

أما استظهار القرآن فقد كان يحصل — كما هو الشأن من قبل — بالاستظهار والحفظ من اللوح ، ثم بالتكرار في دولات متعاقبة في النهار والليل للأحزاب وربما كان الحفظ بالتلقي من المؤدب وبالتكرار على الشيخ (23) وقد كانت وسائل التأديب والزجر بين الشديدة القاسية والرفيقة العطوف قائمة في غالب الأحيان على الترغيب والترهيب بالاحسان والتركية وبالانتهاز والضرب (24) .

وشاركت الزوايا الكتابية لكونها موثلا لصغار الطلاب والحفاظ في البوادي والقرى . وربما كان إلى جانب الزاوية أو داخلها كتاب يقوم على تعليم الرسم والخط ، وتحفيظ القرآن . وهكذا كانت تقوم الزوايا بدور

(22) ابن خلدون : 1 ، 420 .

(23) الديباغ : 4 ، 193 — 195 .

(24) الديبا : غ 4 ، 193 — 195 .

مزدوج يتمثل في الوعظ وتعليم السلوك للكبار . وتحفيظ القرآن وتعليم  
الخط للصغار .

## 2 - المساجد والجوامع :

هذه أماكن العبادة يؤمها العامة والخاصة لأداء واجباتهم الدينية كما  
يهرع إليها عدد ليس بالقليل للرواية أو الدراية والاستفتاء في ما يعرض لهم  
من قضايا ومشاكل يومية تتصل بشؤونهم الدينية أو الدنيوية . ولحرمة هذه  
المعابد وصيانتها منع الحفصيون تلقى الأطفال بها المعارف الأولية وحفظ  
القرآن . خصوصا وقد توفرت لهم بالمدينة والأرباض الكتاتيب التي يترددون  
عليها عادة بتوجيه من آبائهم أو أوليائهم . وقد اتسمت هذه المؤسسات  
بالظاهرة العلمية من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم واشتهرت بالمدينة وبالشام  
والعراق ومصر . ولعبت دورا جليلا بإفريقية أيضا في القيروان والمهدية وتونس .

وهي في العصر الحفصي وبمدينة تونس ملتقى للعلماء يجلسون بها حلقا  
وينشرون على مسامع الطلاب والقصاص فنون المعرفة الإسلامية من لغوية وشرعية .

وإذا كانت المصليات مثل مصلى باب المنارة الذي ابتناه أبو زكرياء  
وجعل له أبراجا وشرائف كأنه بلد صغير (25) معدودة وغير مضبوطة اليوم  
لقلتها . فإن المساجد على العكس كانت عديدة وعديدة جدا . فهي مثل  
الكتاتيب أو أكثر منها . ولعل عددا منها كان معروفا بنسبته أو إضافته للشيخ  
القائم عليه بإمامته وإقرائه فيه مثل مسجد ابن حبش بربرص باب سويقة (26) .  
ومسجد أبي القاسم الليدي الذي ينتصب فيه لإقرائه (27) والمسجد الذي  
دخله أبو عبد الله العبدري ولقي به أبا الحسن التجاني فحدثه وأنشده الأشعار

(25) الزركشي : 25 .

(26) كان الشيخ أبو عبد الله بن إبراهيم السلاوي إماما به . انظر ابن رشيد : 1737 . 85 أ .

(27) العبدري : 243 .

وأجازه به . وقال نه فيما قال : أنا الثاني عشر مدرسا من آبائي على نسق كلهم قد قعد هنا للإقراء (28) .

وإذا كان المؤرخون قد ذكروا المساجد لهذا العهد الحفصي على غير تعيين أو تحديد دقيق بحيث لا ندري بالضبط ما بقي منها حتى الان من العصر الحفصي بمدينة تونس وبأرباضها وما هو متأخر عنه ، فان المسجد الجامع أو الجامع قد كان له شأن غير ذلك . وأقدم الجوامع وأعرقها وأشرفها وأعظمها جامع الزيتونة الذي يرجع تاريخه إلى أوائل المائة الثانية . قيل وضع أساسه حسان بن النعمان وأتمّ عمارته عبيد الله ابن الحبحاب وقيل كان الفراغ من بنائه سنة 141 كما تشهد بذلك كلمة « اعلم » المنقوشة فوق القوس المسامت للتوايت بيت الصلاة . وقيل تاريخه « جامع » وهو بحساب الجمل 114 ولعل ذلك تاريخ الفراغ من بناء أقواسه (29) .

وهذا الجامع رحب فسيح الأرجاء مستطيل الشكل يتألف بيت الصلاة فيه من خمسة عشر مسكبة عمقا ، وسبع مساكب عرضا موازية للقبلة . وتقوم أقواسه على أعمدة سوار رخامية مجلوبة من الخارج . وصحنه كبير أيضا يوازي في اتساعه البيت . وقد ورد في وصفه في العصر الحفصي قول العبدري في رحلته :

وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقا ، ودائر صحنه مسقف ، ووسطه فضاء قد نصبت فيه أعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجدار ، وشدت إليها حبال متينة في حلق من حديد متينة فيها وفي السقوف شدا محكما . فإذا كان يوم الجمعة نشرت عليه شقق الكتان المطبقة الموصولة حتى تظلل جميع الفضاء . ذلك دأبهم حتى ينصرم وقت الصيف (30) .

(28) العبدري : 257 .

(29) السراج : 3 ، 574 ؛ ابن الخوجة : 10 - 11 .

(30) السراج : 3 ، 576 ؛ العبدري : 36 .

وقد كان من رعاية الحفصيين له أن شملوه بعنايتهم فجلب . له المستنصر ماء زغوان 1250/648 بواسطة قناة ممتدة من رياض أبي فهر التي كانت له بأريانة ، وكساه ابنه يحي وحسنه 1277/676 . وأمر السلطان زكريا 1316/716 بعمل عوارض وأبواب من خشب لبنت الصلاة ، وأنشأ فيه بعد ذلك أبو عبد الله محمد الحفصي المقصورة التي بصحن الجنائز وهي مقر المكتبة العبدلية سابقا ، وبنى السبيل الذي تحتها على راس المائة العاشرة (31) . ومن مظاهر عنايتهم به أن رسخ تدريس العلم به وتشعشت أنواره بفضل ما أضافوا إليه من خزائن الكتب الجامعة ، ويكفي على التحقيق للدلالة على ذلك أن نشير إلى مكتبة الأمير أبي فارس التي أسسها به بين 786-837 ، ومكتبة حفيده عثمان بن محمد ابن أبي فارس 839-893 . وإلى مكتبة الأمير أبي عبد الله محمد بن حسن بن مسعود بن عثمان 932/899 التي عرفت بعد ذلك بالعبدلية (32) .

وقد كان الوضع في ذلك العهد يقتضي تعيين أحد كبار الشيوخ إماما لهذا الجامع . ويسمى الإمام الأول خطيبا . وهو يتولى الفتيا الشفاهية فيه بين الناس . ومن ورائه ، إمام ثان يصلي بالناس الخمس ولا يخطب في الجمع ولا في الأعياد إلا بالإئابة من الإمام الخطيب الأول في هذه الخطة . تشهد لذلك حادثة ابن عبد السلام الهواري (33) . ومن أبرز الائمة الخطباء فيه في القرنين 7 و8/الثالث والرابع عشر المشائخ المقدسون :

- الفقيه الخطيب الصالح أبو مروان عبد الملك ابن الغرغار (34)
- والفقيه الصالح أبو موسى هارون الحميري التونسي (35) .
- وقاضي القضاة أبو اسحاق ابراهيم بن حسن بن عبد الرافع (36) .

(31) ابن الخوجة : 13 - 14 .

(32) ابن الخوجة : قصة الكتاب التونسي .

(33) ابن الخوجة : 17 - 18 ؛ مخلوف : 1 ، 207 ، عدد 718 .

(34) ابن قنفذ : 153 .

(35) مخلوف : 1 ، 207 ، عدد 718 .

(36) مخلوف : 1 ، 207 ، عدد 719 .

والمحدث المتقن أبو عبد الله محمد بن عبد الستار (37) .

وقاضي الجماعة أحمد بن أحمد بن أحمد الغبريني (38) .

والعلامة الحافظ النظار أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي (39) .

وهو إلى جانب إقامة الصلاة به عامر بتلاوة متواصلة للقرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار ، وبقراءة المسانيد ورواية الحديث الشريف . وقد حمل هذا الأمرء الحفصيين من بعد على ترتيب وظائف بهذا الشأن . فأسس أبو عمرو عثمان الحفصي القراءة على الختمة به قبل صلاة الصبح وقبل صلاة الظهر وقبل صلاة العصر ، وأسس أبو العباس أحمد ابن أبي بكر الحفصي حزب السبع الذي يختم فيه القرآن بين الدول كل يوم جمعة كما رتب أبو فارس عبد العزيز حزب الترغيب والترهيب بعد صلاة العصر ورواية الصحيح بين الظهرين . ومن أجل استمرار العمل على هذا والقيام به بدون انقطاع أوقفت الأوقاف الواسعة الجارية ورسم بالجامع القراء والرواة ونحوهم من القائمين بهذه الشعائر (40) .

وانتصب الشيوخ من الفقهاء والمحدثين وعلماء الشريعة والعربية بهذا الجامع فدرسوا مختلف الفنون والعلوم . وكانوا بذلك قبلة القصاد ومورد الطلاب ومحجة أهل العلم من أطراف البلاد . وجرت بحلق هذا المسجد الجامع مناهل المعرفة في دروس التفسير والأصليين والفقه والمنطق والجدل والعربية والأدب . يكفي لتبيين ذلك تتبع نشاطات العلماء والمدرسين الذين اضطلعوا

(37) مخلوف : 1 ، 210 ، عدد 730 ؛ السراج : 1 ، 627 .

(38) مخلوف : 1 ، 224 عدد 800 .

(39) مخلوف : 1 ، 227 ، عدد 817 ؛ السراج : 1 ، 577 - 591 .

(40) ابن الخوجة : 35 - 37 .

بهذا المهم بصفة حرة تلقائية في الغالب . وما كانوا يقرؤونه من كتب ويتولونه من مذاكرات في الجزء الخاص بذلك من كتاب الحلل للوزير السراج (41) .

ويقينا أن المساجد الجامعة الأخرى التي أسسها الحفصيون في القرنين السابع والثامن/الثالث والرابع عشر أو التي وجدوها بالمدينة من مآثر الدول المتقدمة عليهم، لعبت هي أيضا دورا ثقافيا هاما وهو وإن لم يبلغ ما وصل إليه جامع الزيتونة في هذا العهد . إلا أنها لم تخل من مجالس الذكر والوعظ ومن الفتوى والتوجيه . وتلك المساجد الجامعة الأخرى هي :

جامع القصر الذي أنشأه بنو خراسان على انقاض كنيسة رومية (42) .

وجامع القصبة أو الجامع الموحيدي الذي ابتناه أبو زكريا الأول وكانت به الخطبة الثانية التي ظهرت بتونس بعد مضي أكثر من خمسة قرون على خطبة جامع الزيتونة (43) .

وجامع الهواء أو جامع التوفيق الذي هو من مآثر المحسنة الأميرة عطف زوجة الأمير أبي زكريا الأول وأم ابنه الخليفة المستنصر (44) .

ويليه جامع باب البحر أو جامع الزيتونة البراني الذي أسسه الدعي أحمد ابن مرزوق ابن أبي عمارة المسيلي في حدود 1282/681 على عهد أبي اسحاق ابن أبي زكرياء . وقد أقامه مكان فندق كانت تباع به الخمور سرّا للمسلمين (45) .

(41) السراج : 1 ، ق 3 ، 559 - 844 .

(42) ابن الخوجة : 96 - 105 .

(43) ابن الخوجة : 91 - 95 .

(44) ابن الخوجة : 65 - 67 .

(45) ابن الخوجة : 67 - 70 .

ثم جامع أبي محمد عبد الله المرجاني بباب سويقة .

وجامع باب الجزيرة البراني الذي هو من تأسيس أبي محمد عبد الله المغربي . وهذان الشيخان متعاصران من رجال المائة السابعة/الثالث عشر (46) .

يلي الجامعين الأخيرين في الترتيب الوجودي جامع يحي سيدي نسبة للشيخ يحي السليمان الذي أسسه . وقد كانت الخطبة الأولى فيه 1346/747 (47) .

وربما شاركت هذه المساجد الجامعة في الذكر والتوجيه الديني وتميزت بالتربية وبيان الطريق بعض الزوايا القائمة في هذا العصر بمدينة تونس ، مثل زاوية سيدي أبي الحسن الشاذلي وسيدي القرجاني ، وسيدي علي الخطاب ، وسيدي حسن السيجومي وسيدي محمد الغربي وغيرها . مثلما انفصله في محله (48) .

### 3 - المدارس :

هي معاهد العلم والدراسة كما يؤذن به اسمها المطلق عليها . وهذا الاسم له دلالتان عامة وخاصة . أما الأولى فهي تشمل الكتاتيب والمساجد والجوامع ودور القرآن ودور الحديث والربط والخوانق والترب والزوايا ونحوها من الأماكن التي تنشر فيها المعارف وتجتني منها الفوائد العلمية (49) . وأما الثانية فهي معاهد مستحدثة لتدريس العلوم الشرعية أو الرياضية الطبيعية . ومن ثم نجد لها منوعة كما في دمشق إلى مدارس الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة ، ومدارس الطب . ومثل ذلك ظهر في البلاد المصرية .

(46) ابن الخوجة : 70 - 76 .

(47) ابن الخوجة : 76 - 77 .

(48) دولاتي : 109 ، 205 .

(49) النعيمي : 1 ، 5 .



وأول ظهور لهذا النوع من المؤسسات العلمية في بلاد الاسلام كان بخراسان في حدود القرن الرابع /نهاية الالف في شكل مدارس خاصة حرة . ثم اكتست الصفة الرسمية بواسطة الوزير نظام الملك في النصف الثاني من القرن الخامس /الحادي عشر حين ابنتى مدرسته الفخمة الشهيرة . وظهرت من بعدها بنيسابور وبغداد مدارس كثيرة . وإلى نور الدين وصلاح الدين يرجع كبير الفضل في ظهورها وانتشارها ببلاد الشام ومصر (50) . وقد أشار ابن جبير إلى مدى العناية بها من الأول في قوله من رحلته : « ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تنصير إلى الفقهاء المدرسين بها ، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم (51) » .

أما بشمال إفريقيا فقد أسس المدارس وابتناها . وجعل منها معاهد علم ومراكز لنشر الثقافة وتكوين إطارات الدولة أبر زكريا الحنفي الاول . وذلك بابتناؤه المدرسة الشماعية فيما بين 6 شعبان 636/30 جوان 1228 و 12 جمادى الثانية 646/ الثاني من اكتوبر 1249 . وقد تبع بذلك سنة الملوك بمصر والشام ، وما ظهر في أطراف بلاد المغرب الأقصى في أوائل القرن الخامس الهجري مثل مدرسة وكاك بن زالو اللمطي بالسوس ، ومدرسة ابن ياسين أورباطه الذي أسسه بالصحراء المغربية في جزيرة بنهر السنغال . ومدرسة الصابرين التي أسسها يوسف بن تاشفين من المرابطين وهي التي عرفت بعد بمدرسة بومدين (52) . وسواء أراد أبو زكريا أن يجعل من المدرسة المستحدثة صورة جديدة لدور الحديث التي أسسها أسلافه من الموحدون في أطراف البلاد — كما يميل إلى ذلك برنشتفيك (53) أو أراد أن يكون بها ومنها مؤسسات للنهوض بالدراسات الفقهية والعقائدية ،

(50) برنشتفيك : المدارس بتونس : 261 .

(51) ابن جبير : 183 .

(52) العمراني . مجلة البحوث العلمية : 163 .

(53) برنشتفيك : المدارس بتونس — 261 — 285 .

والعناية بالأصلين أصول الدين وأصول الفقه — مثلما يكاد يجزم به بال A. Bel (54) فإن هذه المدرسة جرت في الواقع على غرار المدارس الشرقية، وكانت تضم من الفنون هذه إلى تلك ويتولى بها أعلام الفكر من أئمة الفقه ورجال الحديث في ذلك العصر إلقاء دروس ومحاضراتهم في مجالس مشهودة مشهورة نوه بها الرحالون ووصفوها في كتبهم وأثناء ما دونوه من تراجم العلماء وأخبارهم (55) .

والمدارس الحفصية من حيث فخامة البناء والشكل الهندسي أقل شأنًا بكثير من أخواتها التي ابتناها المرينيون أو الزيانيون ، لكنها مع ذلك في الواقع طلابية رائدة فيما اضطلعت به من دور علمي وثقافي .

وإذا كانت الدروس حرة بالجوامع والمساجد والزوايا لا يخضع نظام التعليم فيها إلا لمبدأ العرض والطلب — فينتصب من شاء من الشيوخ المشهود لهم بالتفوق في العلم ، والرسوخ في الديانة والطلب للإقراء . ويقصد إليها الطلاب عادة بعد استيفاء حفظ القرآن الكريم كله أو جله ، وبعض العامة ممن يريد الانتساب إلى تلك الحلقات والاستماع إلى الشيوخ — فإن المدارس كانت على العكس من ذلك نظامية . فهي من تأسيس الأمراء الحفصيين — كما قدمنا — أو بعض الشخصيات المرموقة ، ولها نظار أو شيوخ متدبون لإدارتها وإلقاء الدروس بها على الطلاب المقيمين بها والمرسمين فيها . فهي مبيت ومعهد في الآن نفسه . وهي مستقلة كلياً عن الجامع الأعظم وليست فروعاً له (56) . ووظيفتها تخريج الموظفين الذين تحتاجهم الدولة من ساسة وسفراء وقضاة وولاة وكتاب ونحوهم . وهي لذلك أكثر التزاماً ورعاية لمبادئ واتجاهات الحكومة من غيرها من دور العلم .

(54) بال : 277 - 281 .

(55) راجع تراجم العلماء برحلات ابن رشيد ، والعبدري ، والتجيبسي ونحوها .

(56) عبد المولى : 22 .

وعلى هذه المدارس أوقاف تجري منها مرتبات شهرية للشيخ المدرسين ومنح للطلاب المقيمين بها فيها . ومدة الإقامة والدراسة للطلاب بها لا تتجاوز خمس سنوات كما أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته حين قارن بين الوضعين في ذلك ببلاد المغرب وإفريقية قائلا: «إن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس بالمغرب ست عشرة سنة . وهي بتونس خمس سنين . وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي أقل ما يتأتى فيه لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها (57) » .

وأولى المدارس إنشاء على التحقيق بتونس المدرسة الشماعية الواقعة بسوق الشماعين المعروفة اليوم بسوق البلغاجية . وهي كما ذكرنا من تأسيس أبي زكريا الاول 1236/633 . وقد حضر ابن رشيد بها دروس رواية الموطأ في رمضان 1286/685 على الشيخ الفقيه المحدث الامام أبي القاسم ابن زيتون (58) . وقد داعت للسقوط أواخر العصر الحفصي فتداركها الداوي أحمد خوجة بتجديد عمارتها 1640/1057 على عهد الدولة المرادية (59) .

والمدرسة الثانية هي التوفيقية أو مدرسة جامع الهواء . وهي من تأسيس أم الخلائف الأميرة عطف - كما سبق - بين سنة 1250/648 - 1260/659 . ومكانها من الربض الجنوبي بين رحبة الغنم وأسوار السيجومي . وحدد موقعها صاحب المؤنس فقال: «إنها تقع أمام زاوية الشيخ سيدي قاسم الجلبي . وقد تهدمت هذه المدرسة في القرن 17/11 . وكانت المدرسة المعروفة بهذا الاسم قائمة مكانها بعد التجديد (60) . ومن أول من تولى مشيختها وإمامة الجامع المنسوبة إليه الإمام العالم الخطيب أبو عبد الله محمد الشريف من أصحاب الامام الشاذلي 1267/616 . وتولى مشيختها أيضا في المائة السابعة الفقيه الصالح

(57) ابن خلدون : المقدمة : 432 .

(58) ابن رشيد . مخط : 1737 ، 10 ب .

(59) ابن الخوجة : 176 - 178 .

(60) برنشتيقي : المدارس بتونس : 275 - 267 .

الشيخ محمد بن نصر البسكري (61) . ومن أشهر المدرسين بها الحافظ المحدث أبو بكر محمد بن أحمد بن سيد الناس الحميري (62) 1233/692 .

والمدرسة الثالثة وجودا والاولى زوالا وانقراضا المدرسة المعرضية نسبة إلى المعرض وهو السوق التي كان يباع بها الرقيق . ابتناها الامير أبو زكريا ابن أبي اسحاق أيام سكناه بدار الغوري بنهج الكتبيين في حدود 1282/680 . وقد أقامها بمكان فندق كان يسكنه أهل السوق . وعني بها عناية خاصة واهتم بها اهتماما كبيرا وحبس عليها ريعا كثيرا اشتراه بماله الخاص مع كتب نفيسة في كل فن من فنون العلم . وقد اختار لها من الشيوخ العالم المؤرخ الاديب الشيخ أبا العباس أحمد الغرناطي صاحب كتاب المشرق في علماء المغرب والمشرق . وكان يحضر بها مجلسه للوعظ يومي الاثنين والجمعة فيطلق العنبر والعود ما دام المجلس . وجعل بين داره وبين المدرسة طاقة يسمع منها ما يقرأ في المدرسة (63) . ولعل هذه المدرسة عينها هي التي كانت تعرف بمدرسة الكتبية ، وهي التي ذكر البلوي أنه سكنها ونزل بها واستمع فيها إلى دروس الشيخ الخطيب الإمام أبي عبد الله ابن عبد الستار ، وكذلك ذكرها ابن بطوطة (64) .

والمدرسة الرابعة إنشاء كانت في حياة المستنصر ابن أبي زكريا . وهي المعروفة بالعصفورية نسبة لشيخها العلامة الذحوي الذائع الصيت أبي علي ابن موسى ابن عصفور الاشبيلي . وكانت تقع بدرب ابن عبد السلام وهو الزقاق المنتصب به الان معهد ابن خلدون في سوق العطارين (65) .

(61) ابن الخوجة : 178 - 179 .

(62) برنشفيك : المدارس بتونس : 274 - 275 .

(63) الزركشي : 51 .

(64) السراج : 1 : 3 ، 627 ؛ البلوي : 13 ب ؛ ابن بطوطة : 6 .

(65) ابن الخوجة : 179 - 180 .

ثم ظهرت مدرستان أخريان هما المدرسة المرجانية والمدرسة المغربية.  
الاولى - وهي الخامسة - تقع خارج باب السويقة ، والثانية - وهي السادسة -  
بباب الجزيرة . وهما - كما قدمنا - نسبة للشيخين الصالحين أبي محمد  
المرجاني وأبي محمد المغربي من رجال القرن السابع/الثالث عشر (66) .

والمدرسة السابعة هي العنقية نسبة للنهج الذي تقع فيه واسمه نهج عنق  
الجمال. وهي من بناء الأميرة فاطمة بنت الأمير أبي زكريا ، أخت الخليفة  
أبي يحيى ابن أبي بكر . نجز بناؤها 1341/742 (67) . وقد تولى التدريس  
بها بطلب الأميرة نفسها قاضي الجماعة الشيخ محمد ابن عبد السلام . وكان  
من أجل ذلك يقسم الأسبوع بين المدرستين العنقية والشماعية . ومن بعده درس  
بها الشيخ محمد بن سلامة . وعلى التوالي جماعة كان منهم أبو مهدي الغبريني  
وأفراد من بيت القلشاني وغيرهم (68) .

وأسس بعد ذلك الحاجب الوزير أبو محمد ابن تفراجين مدرسة . وهي  
التي دفن بها 1364/766 . وموقعها بقنطرة ابن ساكن داخل باب السويقة بنهج  
سيدي ابراهيم الآن ، ولم يبق لها أثر يذكر (69) .

و آخرة المدارس ابتداء وتأسيساً في القرن الثامن/الرابع عشروهي التاسعة ،  
مدرسة سيدي يحيى السليمانى الواقعة بدرب العسل . وهي معروفة باسم الجامع  
المتصلة به (70) .

ولا نعد من المدارس التي ظهرت في نهاية هذا القرن مدرسة الخليفة  
أبي فارس التي أتم بناءها 1399/801 (71) . فهي من المدارس التي لم يظهر  
دورها ولم يعمرها الطلاب الا في فجر القرن التاسع/القرن الخامس عشر .

(66) ابن الخوجة : 181 - 183 .

(67) ابن الخوجة : 133 - 184 برنشفيق : المدارس بتونس :  
268 .

(68) ابن الخوجة : 183 - 184 ؛ الزركشي : 71 .

(69) الزركشي : 101 ؛ برنشفيق : المدارس بتونس : 268 .

(70) ابن الخوجة : 184 .

(71) برنشفيق : المدارس بتونس : 268 .

وقد كانت الدروس العلمية بالجوامع والمساجد والمدارس متماثلة تقريبا ومتكاملة ولكنها في الأخيرة أضبط . وهي تمثل مرحلتين من التعليم ثانوية وعالية . وأحسبها كانت متنوعة فيما تناوله من علوم الرواية والدراية ، وأنها بقدر اعتماد الشيوخ فيها بالنسبة للأولى على طرق التحمل الكثيرة كانت تقوم على منهج الإلقاء بالنسبة للثانية ويعتمد الاساتذة فيها إلى الشرح والتحليل والتمحيص والنقد والتخليص والتلخيص .

### اعلام الحياة الثقافية :

وهذه المدارس وما تقدمها من مؤسسات علمية لم ترتفع منزلتها ولا برزت أهميتها الا بفضل القائمين عليها والمباشرين بها لمهمة التدريس من أعلام الائمة وكبار الاساتذة والشيوخ . فإليهم يرجع كل الفضل في تكوين النهضة العلمية والثقافية لهذا العصر بمدينة تونس وغيرها من المدن والبلاد المجاورة لها . ومن المؤكد أن ظهورهم بأي مكان وفي أي وسط كان يحول بل يوجد بالمجالس والمنتديات والمراكز التي يغشونها الجو العلمي الرائع ويضفي عليها حياة ثقافية ممتازة ممتعة . وذلك ما يدعونا إلى ملاحظة عناصر التكوين العلمي والثقافي لتسجيل آثارها وبيان أدوارها .

### في البلاط والمخزن

في كل عصر وكل بلد يحرص رؤساء الدول على إيجاد الإطارات العليا النافعة ، وتوفير العناصر التي يحتاجون إليها ويفأخرون بها . وقد جرى الحفصيون على هذه السنة الشائعة المعروفة في بلادي المشرق والمغرب ، وحفزهم إلى الاعتناء بها تحول افريقية لعهدهم من ولاية موحدية إلى دولة مستقلة ، كما وجدوا لذلك سندا ومددا من العناصر المهاجرة الاندلسية والمغربية التي لجأت إلى ظلهم تطلب الأمن والاطمئنان والاستقرار والجاه في البلاط الحفصي .

وهكذا اجتمع في قصر السلطان وفي خدمته في عهد أبي زكريا الأول وعهد ابنه المستنصر وفي بقية القرن الثامن/الرابع عشر عدد عديد من الشخصيات الفكرية العلمية والأدبية اللامعة من تونسيين وأندلسيين ليس في الإمكان التعرض لهم جميعا ، ولكننا نذكر على سبيل المثال أفرادا . منهم :

رئيس الدولة أبو عبد الله محمد بن الحسين ابن أبي الحسين سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف العنسي 172/671 . وزير أبي زكريا الأول والأمير المستنصر من بعده . وقد كان متفنا في العلوم . مجيدا في الفقه . يقرض الشعر ويترسل . وله ترتيب المحكم لابن سيده . واختصاره الذي اسماه خلاصة المحكم (72) .

ومنهم كتاب بديوان الإنشاء . في مقدمتهم : الفقيه الاديب أبو العباس أحمد بن ابراهيم الغساني التونسي 1259/658 . صاحب علامة أبي زكريا وابنه المستنصر من بعده في عهدي الإمارة الخلافة . وهو رئيس مقدم في النظم والإنشاء بارع في الخط المشرقي . وهو من أول الكتاب . جمعت له خطة العلامة وخطة الإنشاء . وكان ظريفا حاذقا . تولى تدوين سير المستنصر وكتابة ما يجب من تواريخه . وله اختيارات (73) .

ومن التونسيين الذين تولوا في هذه الفترة رئاسة الإنشاء الامام البارح المحقق المتفنن الأصولي الجدلي المؤلف المتقن أبو عبد الله محمد بن يحيى بن محمد المعافري المشهور بابن الحباب وهو من تلاميذ ابن زيتون . وعنه أخذ جماعة كابن عبد السلام وابن عرفة ونحوهم (74) .

(72) انظر كشي : 6 ، 334 .

(73) ابن قنفذ : 123 - 124 .

(74) البلوي : 15 أ ؛ مخلوف : 1 ، 209 ، عدد 729 .

وإلى جانب هذين العلمين نذكر من الأندلسيين الوافدين على إفريقية الشيخ الفقيه المحدث المقرئ النحوي الأديب اللغوي الكاتب الشاعر التاريخي أبا عبد الله محمد بن عبد الله ابن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمان بن أبي بكر القضاعي الشهير بابن الأبار . 1198/595 ببلنسية ، قتله المستنصر 1259/658 بتونس . وفد على أبي زكريا مستصرخا عن والي إشبيلية بقصيدته السنية وبعد رجوعه إلى بلده ومفارقتها إثر ذلك لوطنه استكتبه أبو زكريا ، وارتقى إثر وفاة أبي عبد الله محمد بن محمد ابن الجلاء البجائي إلى خطة الانشاء والعلامة ، وأقيل منها بعد مدة يسيرة ، ووليها مكانه أبو العباس الغساني المتقدم الذكر . وكان إلى جانب ذلك يرقب الطوابع ويضع البطاقات فيها بالقصر السلطاني . وله براعة في القول وجودة في الترسل والنظم ، ومصنفات تنطق بعجيب أمره ، وعلو رتبته وجليل قدره ، تبلغ نحو من خمسين تاليفاً يرويها عنه طلابه المتخرجون عليه (75) . وقد عده ابن رزين من بين شيوخه إذ لازمه كثيرا واستفاد منه ، وأخذ الحديث والأدب عنه قال : « أنشدني من شعره قصيدته التي أولها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

إلى آخرها، وغيرها من مقطعات كانت من الحسن مقتطعات . قال : « وسمعت عليه من مصنفاته وانشاءاته : الأربعين حديثا ، وتكرر لي سماعها من لفظه ، وكتاب المعجم في أصحاب أبي علي الصدي الذين رووا عنه بقراءة صاحبنا الفقيه أبي عبد الله ابن الجلاب ، وكتاب درر السمط في خبر السبط وتكرر لي سماعه من لفظه . وسمعت من لفظه من تواليفه كثيرا من كتاب التكملة لكتاب الصلة وناولنيه ، وبعض كتاب إعتاب الكتاب ، وكثيرا من تحفة القادم وجملة من كتاب المحمدي ، وكثيرا من كتاب خضراء السندس في شعراء الأندلس ، وما كان شرع فيه من شرح البخاري . وقرأت عليه من



توآلفه ءممع أرفوزته التي وسمها بنفاضة العباب ولفاظفة العباب . وأجاز لي ءممع ذلك مع سائر توآلفه وءممع تصانيفه التي منها : معدن اللءن في مرآئى الحسن ، والمأخذ الصالح في ءءىث معاوية بن صالح ، والمورد السلسل في ءءىث الرحمة السلسل ، وقصد السبيل وورد السلسيل في المواعظ ، والإيماء إلى المنءبن من العلماء ، وقطع الرياض في بدع الاغراض ، والءلة السبراء في شعراء الأمراء ، وإيماض البرق في شعراء الشرق ، ونهاية المعتسف في المؤتلف والمختلف ، واعتصار الهوب في ذكر الوطن المءبوب ، وبرنامء رواباته ، ومءمع شيوخه (76) » .

ومن الكتاب الذين تزىن بهم بلاط الءفصين الشىء العالم المتصوف أبو عبد الله ابن عمر الذي ءءل به الدووة الأندلسية ، كما ءءل عنه الءصرة التونسية بآوليه ديوان إنشائها . وهو إلى معارفه الأدبية صاحب روابات ءءىثة واسعة (77) .

ومن رجال المءزن بإفريقية بهذا العهد الفقيه الأءيب الكاتب الشاعر الذي ءهاف على الءطط المءزنية وساعده السعد فيها ثم ءنكرت له أيامه واءءل السجن . أبو العباس أحمد بن عثمان اللباني 61/659 - 1260 . صاحب التقيىدات على المءونة والتلقين (78) .

وكان من أقرب الرجال إلى ملوك بني ءفص ومن أهل الثقة لءبهم ءماعة من كبار العلماء ءولوا السفارة بينهم وبين البلاد المشرقية والمغربية نءص بالذكر منهم :

1 - القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الءزرءى الشاطبى 1292/691 بآونس . وهو الفقيه الصدر المءصل العالم المءقن قاضى بءاية ثم

(76) ابن رشىء : مخط ، 1737 ، 64 ب - 65 أ .

(77) البلىوى : 17 أ - 19 أ .

(78) مءلوف : 1 ، 189 ، عدد 632 .

تونس . توجه من قبل ملك إفريقية رسولا إلى صاحب الديار المصرية فحمد مسعاه وشكر منحاها . وكان له علم بالعربية وأصول الفقه ، ومشاركة في أصول الدين وقوانين الطب . وله شرح على الجزولية (79) .

2 - الشيخ الفقيه القاضي أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن ابن الغماز الانصاري الخزرجي البلسي 1212/609 ببلنسية - 1293/693 بتونس . ولي القضاء بمدن كثيرة من إفريقية ثم نقله الخليفة إلى حضرته ، وقلده قضاء الجماعة ، فقام به ونهض بأعبائه ، ولم يستعن بغيره . وكان منفذ الأحكام ، بصيرا بالنوازل ، عارفا بالوثائق وعقد الشروط . وهو رجل حسن السياسة ، بصير بأحوال الناس مراعا لها ، قائم عليها . وقد توجه إلى المغرب لبعض ملوكه عن المستنصر بالله . فكان يوصف من رئاسته وعلو همته بما يدل على فضيلته وانتخاب طينته . وكان محبوبا عند الناس لقربه منهم . وهذا ما يفسر زيارتهم له وترددهم عليه . فكان يستقبلهم بداره ويجلس لهم بيت في اسطوان منزله لاسماع الحديث . فهناك قرىء عليه كتاب **التقصي** لابن عبد البر ، والأربعون في المواعظ والحكم تخريج ابن ودعان ومفاوضة القلب العليل في معارضة ملقى السبيل للكلاعي ، وكتاب الاستيعاب ، والأربعين الثقفية ، تخريج أبي نعيم ، وبرامج شيخه أبي الربيع . كما كان يعرض على الوراد الرواد أسماء مشيخته وأسانيده ، وينشدهم ما يحضره من القصائد والأشعار (80) .

وليس من الجائز ان نغفل في هذه القائمة ذكر رجال الديانة من الخطباء والقراء الذين منهم :

الشيخ أبو القاسم ابن حماد ابن أبي بكر الحضرمي اللبيدي التونسي 1204/600 - 1291/690 ، الفقيه اليقظ المعمر صالح العلماء

(79) الغبريني : 67 - 69 ؛ مخلوف : 1 ، 198 ، عدد 671 .

(80) ابن رشيد : مخط . 1737 ، 15 ب - 25 ب ؛ الغبريني : 70 - 72 ؛ مخلوف : 1 ، 199 عدد 673 .

وعالم الصلحاء خطيب قصبة السلطان وخطيب الأعياد . وقد كان بيته مؤثلاً للطلاب وملتقى لهم . ومما قرئ عليه به **ملخص القابسي** . كما كان يتولى بمسجد إقرائه رواية البخاري . ويقرأ عليه التيسير للداني وعوارف المعارف للسهروردي (81) .

والشيخ الفقيه المحدث الحافظ المتقن اللغوي التاريخي المقرئ أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن محمد بن محمد ابن سيد الناس اليعمرى الاشيلي 4/600 - 1203 - 1261/659 . له علم ورواية . ومعرفة ثابتة ودراية . وهو في القراءات إمام . ولما اشتهر حاله وعلمه دعاه المستنصر إلى حضرته . وأمره ان يقرأ بين يديه . فتلا : « فيما رحمة من الله لنت لهم » إلى « إن الله يحب المتوكلين » . فاستحسن الخليفة قراءته وقصده وأجزل عطيته . واستدناه ووفر جراته . وجعله حظياً عنده . وكان من أخص الحاضرين بمجلسه . ومما اشتهر به انه كان يستظهر عشرة آلاف حديث بأسانيدھا ويزاكر بأضعافھا (82) .

والشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن لبّ الانصاري الاندلسي الفقيه الأديب الموجود المتقن الحسن الإبراد ، قارئ الامراء وصدر القراء . يروي عنه ابن رشيد بعض أشعاره (83) .

وما كان ليخلو هذا البلاط من مواسين وأطباء يعللون النفوس ويداوون الأجسام . وهم من الصنف الأول شعراء حذاق . ومن الصنف الثاني حكماء نطاسيون .

فمن الشعراء الصابوني الذي راسل أبا زكريا بقصائده من الأندلس قبل أن يقدم عليه إفريقية . والحافظ ابن الأبار المتقدم الذكر (84) . والشاعر

(81) ابن رشيد : مخط . 1737 ، 126 - 27 ب ؛ العبدري : 243 ، 244 .

(82) الغبريني : 174 - 177 ؛ مخلوف : 1 ، 194 ، عدد 657 .

(83) ابن رشيد : مخط . 1737 ، 112 ب . - 114 أ .

(84) ابن رشيد : مخط . 1737 ، 140 - 150 أ .

الفحل أبو الحسن حازم القرطاجني 1285/684 بتونس . صاحب القصائد الغرّ  
البديعة التي من أجودها وأملحها وأطولها نفساً وأشملها عرضاً قصيدته  
المقصورة ، ومؤلف كتاب المنهاج (85) .

وابن عربية أبو عمرو عثمان بن عتيق التونسي 4/600 — 1203 —  
65/659 . وهو الحافظ الأديب الشاعر صاحب فوائد الكلم النبوية ،  
والزهرة في مسند العشرة ، وآثار السحابة في آثار الصحابة ، وسنن القوم  
في آداب الليلة والنوم ، والمستوفي في أحاديث المصطفى ونحوها (86) .

وأما النطاسي الحكيم فهو ابن اندارس أبو القاسم محمد بن أحمد بن  
محمد الاموي المرسى 1275/674 بتونس . كانت له معرفة بعلم العربية ،  
ومشاركة في أصول الدين . وكان يقرئ الطب ويتولى علاج الولاة . قدم  
بجاية أولاً واستقر بها . ولما شاع أمره وذاع صيته استقدمه المستنصر إلى  
إفريقية فحضر مجلسه وكان من جملة جلسائه . وله رجز نظم فيه بعض  
الأدوية (87) .

وقد خلفه من بعده ابنه الفقيه الجليل المتفنن الطبيب الماهر الأديب أبو  
يعقوب يوسف بن محمد . وقد ترجم له ابن رشيد فقال : « جمع له فضل  
الذات والأدوات . له مشاركة حسنة في الرياضيات والمعقولات ، مع حظ  
من المنقولات ومشاركة في نحو وأدب وأصول فقه وطب . داره مألّف  
للفضلاء أصحابه ، يبيتون يتذاكرون في أنواع العلوم ويتجارون ويتبارون  
في فنون المنثور والمنظوم » (88) .

فمن هذه اللوحة التي قدمناها يتبين لنا وجه الثقافة العام ، والعلوم والفنون  
التي شاعت في هذا العصر وما كان من التخصص أو الامتياز الذي حصل

(85) ابن الخوجة : حازم ، قصائد .

(86) مخلوف : 1 ، 189 — 190 ، عدد 633 .

(87) الغبريني : 45 — 47 .

(88) ابن رشيد : مخط . 1737 ، 112 — 120 ب .

لبعض العناصر باعتبار الوظيفة والمهمة التي كان يمارسها أو الهواية المسيطرة عليه والمتحكمة فيه . ولذا يصعب علينا أن نقسم العلماء ورجال الفكر في القرنين السابع والثامن/الثالث عشر والرابع عشر بتونس تقسيما أساسه الاختصاص والتمييز بحسب المواد . ولكننا نصنفهم بحول الله بحسب بعض الظواهر التي نلاحظها فيهم ، والتي يكون لها عندنا اعتبار في رسم الاطار الثقافي العام لعاصمة إفريقية ، وإن كان هذا لا يمنع أبدا من التداخل كما سنلمسه عند تصوير نشاطهم وبيان جهودهم وآثارهم الفكرية العلمية والأدبية . ومع ملاحظة الانصراف أو الإهمال للعلوم الصحيحة الرياضية في هذه الفترة بحيث لا نكاد نذكر من المعنيين بها غير ابن الكماد واضع الجداول الفلكية اعتمادا على مصنفات وأشغال ابن الزركلا (89) وابن الخياط الاندلسي القائم على الزيرجة والتنجيم ، وأشغال ابن الرومية ، وابن البيطار مثل الرحلة النباتية، وأدوية جالينوس التي أفاد منها جمهرة من الأطباء الذين استقروا بتونس (90) فإننا نرى غالب رجال العلم والفكر موزعين بين أئمة خطباء ، وقراء ، وعلماء محافظين ، وآخرين مجددين ، ومتفلسفين ، وفقهاء وصالحين ، وأدباء ونحاة ومؤرخين ، وجماعين للكتب ، وخطاطين .

ولسنا ندعي فيما سنعرضه الإحاطة والشمول فإن ذلك ليس من غرضنا هنا ، ولكنها إلماعات وأمثلة نقدمها لتصوير المحيط العلمي والثقافي بتونس .

### الائمة والخطباء

لم يكن الخطباء بجامع الزيتونة يقلّون شأنًا في العلم والفقه والرواية والدراية والأدب وسائر الفنون عن عامة علماء عصرهم وحتى عن خاصتهم . فكانت الرواية منتشرة فيهم والدراية معتمدة لديهم . وكان منهم القضاة والمدرسون

(89) برنشتي : 2 ، 369 .

(90) اودات بيتي : 107 - 110 .

والفقهاء والكتاب والمؤرخون . وقد أثنى عليهم الطلاب ، ونوه بهم الرحالون في كتبهم لما لقوا من جميل أدبهم وواسع معرفتهم . فمن هؤلاء :

1 - الشيخ المعمّر الإمام الخطيب بجامع الزيتونة أبو عبد الله محمد بن عبد الستار التونسي 1349/749 . المفسر المحدث الفقيه الأصولي . أخذ عنه ابن عبد السلام والمقري وخالد البلوي . وقد حضر هذا الأخير دروسه المتنوعة بمدرسة الكتبيين ونوّه به في رحلته قائلا : « أضاءت بأنوار معارفه البلاد ، وترادف على محله العلمي القصاد ، وعلا سنه وسناه ، وبلغ من وعي المعارف الدينية والأحاديث الكريمة النبوية قصده ومناه . له جلالة السبق ومهابة الولاية والصدق . ومكانة القبول عند الخالق والخلق » (91) .

2 - الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد ابن أبي القاسم بن علي بن عبد البر ابن البراء التنوخي إمام جامع الزيتونة وخطيب جامع القصبة 1337/737 بتونس . له عناية بالتاريخ والرواية . وكان يجلس لرواية مقامات الحريري بدويرة جامع الزيتونة التي يخرج منها الخطيب . وهي بإزاء المحراب من جهة اليسار . وبها وبمنزله سمع عليه البلوي ثلاثيات البخاري ، والمجالس الخمسة لسلفي . وله من المصنفات : اختصار ذيل السمعي ، واختصار تاريخ الغرناطي ، وله تاريخ على طريقة الطبري مرتب على السنين (92) .

3 - قاضي الجماعة الشيخ الإمام الخطيب بجامع الزيتونة أبو القاسم أحمد بن أحمد بن أحمد الغبريني . 1370/772 بتونس . الفقيه العالم الراوية المدرس المفتي المتمكن من العلوم النقلية . أخذ عن ابن عبد السلام ، وعنه البرزلي وأبو الطيب ابن علوان وأبو مهدي الغبريني وأبو عبد الله القلشاني وجماعة (93) .

(91) البلوي : 12أ - 13أ ؛ مخلوف : 1 ، 210 ، عدد 730 .

(92) البلوي : 131أ - 132ب ؛ مخلوف : 1 ، 208 ، عدد 723 .

(93) السراج : 1/3 ، 654 ؛ مخلوف : 1 ، 224 ، عدد 800 .

4 - الشيخ الامام المفتي الخطيب بالجامع الأعظم أبو عبد الله محمد ابن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي. 1316/716 - 1401/803 بتونس . شيخ الشيوخ . وعمدة أهل التحقيق وأستاذ الاساتذة . أخذ عن ابن عبد السلام ودرس بجامع الزيتونة ، وعنه جماعة من أهل المغرب والمشرق منهم البرزلي والأبسي وابن ناجي وابن عقاب وابن القلشاني وابن الشماع وابن مرزوق الحفيد وابن عمار النصري وغيرهم . استمر على الخطابة نحو من خمسين سنة . وبرز في التفسير والحديث والفقه . وإلى منزلته العالية وطريقته البديعة في الإقراء يشير الأبسي في قوله عنه : « فلقد كنت أقيّد من زوائد إلقائه وفوائد إبدائه على الدول الخمس التي تقرأ بمجلسه من التفسير والحديث . والدول الثلاث التي في التهذيب نحو الورقتين في كل يوم مجالس في الكتب » (94) . وله مصنفات شهيرة مفيدة منها : مختصر الفقه ، الحدود الفقهية ، واختصار فرائض الجوفي ، وكتاب في الأصول عارض به طوابع البيضاوي ، وعشاريات ، ومختصر في المنطق . ونفسير ، وغير ذلك (95) .

## القراء :

لا يكاد يخلو في هذه الفترة بعامة بلاد الاسلام وخاصة ببلاد المغرب فقيه أو عالم من معرفة بفن القراءات وإمام بأصوله وقواعده . وشأن الطلاب عند الفراغ من حفظ القرآن الاقبال عليه لتأدية التلاوة على وجه سليم صحيح . فهو من تمام الحفظ ، وطريق إلى ضبط الأوجه المتعددة والقيام بالروايات المختلفة التي يقرأ بها القرآن كما أنه سبيل إلى التمكن من اللغة ولهجاتها وحذف أحرف القبائل في التعبير عن أغراضها . وقد برز في هذا الميدان أئمة مشاهير وقراء متفنون . نذكر منهم على سبيل المثال :

(94) السراج : 3/1 ، 577 - 504 .

(95) مخلوف : 1 ، 227 ، عدد 817 .

الشيخ العالم المعلم قدوة الأئمة وأحد أساتذة الأمة أبا عبد الله محمد بن بدّال المولود 1270/668 والمتوفي في حدود منتصف القرن الثامن . محدث مسند راوية متقدم على القراء . كان يصلي التراويح بجامع الزيتونة وإياه يعني البلوي بقوله : « كان هذا الشيخ قد أوتي من حسن اللفظ بالقرآن ما لم يؤته أحد ممن بقي على الأرض في هذا الوقت بإجماع . حضرت قيامه في ليالي شهر رمضان بالأشفاق ، وانتدب الناس لسماعه من النواحي والبقاع . فما قرع سمعي ولا وقع في أذن قلبي أحسن منه صوتا ولا أحلى تلاوة ولا أعذب إيرادا ولا أطيّب مساقا ولا أعجب إحكاما ولا أغرب ترتيلا ، ولا أجمل جملة وتفصيلا . ولقد كنت حين قراءته على قساوة قلبي ، وغباوة لبي ، أتغاشى وأتلاشى ، ويضجّ جامع الزيتونة بأهله ويغصّ بجمعه فبين بك وداع وخاش وخاشع وساقط من القيام وعادم وجوده في ذلك المقام . كلهم يفعل فيهم صوته ويسكتهم نطقه ويسكرهم ذوقه » (96) . وقد كانت مجالسه حافلة بالقراء عليه بالجمع والإفراد . كما كان يدرس لطلابه القصيدة الشاطبية المعروفة بحرز الأمانى ، وعقيدة أتراب القصائد للشاطبي أيضا (97) .

## الفقهاء :

هؤلاء كثر . وهم خلاصة الأمة وصفوتها بنص الحديث . وهم المرجع الديني للعامة ، والمسؤولون على حماية الشريعة ، والمدلون بأرائهم في ما يشكل من أمور الناس يفتونهم ويفصلون بينهم . وفي هذه الكثرة المعتمدة صنوف واتجاهات تدلّ عليها النماذج والأعلام التي اخترناها ، نعنون بها عليها ، ونميز بها بعضهم عن بعض . وهؤلاء الفقهاء منهم التونسيون ، ومنهم الأندلسيون ، ومنهم المغاربة والجزائريون ، ومنهم الطرابلسيون ، كما أن من

(96) البلوي : 13 - 15 .

(97) مخلوف : 1 ، 211 ، عدد 738 .



بينهم من لم يفارق وطنه وأقام بمغربه مقتصرًا في الأخذ على أئمة بلده ،  
ومنهم من شرق وغرب أو تلقى من المعارف والأسانيد وتأثر ببعض المدارس  
أو الاتجاهات في أسفاره وعند قصده إلى الحج .

والصنف الاول من هؤلاء الفقهاء يمثلها الحافظ للمذهب مالك والقائم عليه  
الشيخ الفقيه المتعبّد أبو الحسن علي ابن الزيات الاندلسي . كان حافظًا للمذهب  
محصولًا متقنًا مجيدًا . درّس ببجاية وبتونس جملة من التصانيف والكتب ،  
منها : التهذيب ، والتلقين ، والجلاب ، والرسالة . وكان يحفظ تنبيه ابن  
بشير ، ومنتقى الباجي . وغيرهما من الامهات (98) .

وكذلك الفقيه المصري الزاهد أبو العباس أحمد ابن علوان التونسي  
1385/787 بالاسكندرية . كان محققًا عمدة . وله نحو أربعين تأليفًا منها :  
لباب الباب على الجلاب . واقطاف الاكف من الروض الانف ، واجتنب  
الزهر من كتاب الطور ، ومختصر المدارك ، واختصار انوار القلوب في العلم  
الموهوب ، والتشوف إلى أهل التصوف (99) .

ومن الفقهاء من بلغ درجة الاجتهاد مثل ابن بزيمة ابي محمد عبد العزيز  
ابن ابراهيم القرشي التميمي التونسي . 1220/606 — 1264/662 . وهو الامام  
الفقيه المحقق الحافظ الحبر المتصوف ، من أعيان ائمة المذهب . اعتمده  
خليل في التشهي . وله مصنفات منها : الاسعاد في شرح الارشاد ، وشرح  
الاحكام الصغرى لعبد الحق الاشبيلي ، وشرح التلقين ، وشرح الاسماء  
الحسنى ، وشرح العقيدة البرهانية ، ومنهاج العارف إلى روح المعارف ،  
وايضاح السبيل ، وتفسير جمع فيه بين طريقة ابن عطية والزمخشري (100) .

(98) الغبريني : 115 — 116 ؛ السراج : 3/1 ، 638 .

(99) مخلوف : 1 ، 226 ، عدد 811 .

(100) مخلوف : 1 ، 190 ، عدد 638 .

وقد خلف هذا الامام في الاجتهاد والرتبة أبو عبد الله محمد ابن هارون الكنانى التونسي . 1282/680 — 1350/750 . وهو العالم الفقيه الأصولي المتكلم . أخذ عنه ابن عرفة وابن مرزوق الجدّ وابن حيدرة والبلوي . واشتهر بدروسه وتقريراته كما عرف بكتبه ومصنفاته التي منها شرح مختصر ابن الحاجب الأصلي ، ومختصره الفرعي ، وشرح المعالم الفقهية ، وشرح التهذيب . ومختصره ، وشرح الحاصل ، ومختصر المتبعية (101) .

ومن هؤلاء الفقهاء من تضيع في الفقه والأصول مثل قاضي الجماعة الإمام الخطيب أبو اسحاق إبراهيم بن حسن ابن عبد الرافع الربيعي التونسي . 1240/637 — 1333/733 . أخذ عن كثير من الوافدين من الاندلس على تونس . له معين الأحكام ، والردّ على ابن حزم في اعتراضه على مالك بشأن الأحاديث التي خرجها بموطئه ولم يعمل بها ، واختصار أجوبة ابن رشد ، والبديع في شرح التفريع لابن الجلاب ، وفهرست (102) .

وينافس ابن عبد الرافع وينازعه اختصاصه الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن راشد القفصي 1336/736 . وهو فقيه أصولي متقن محقق أيضا . أخذ عن أئمة من أهل المشرق والمغرب ، مثل ابن الغماز وحازم وابن العلاف والشهاب الأصفهاني وابن المنير والعراقي وابن دقيق العيد : وعنه جماعة مثل ابن مرزوق الجدّ وعفيف الدين المصري . وفي تآليفه كثرة . منها : الشهاب الثاقب في شرح مختصر ابن الحاجب ، المذهب في حفظ قواعد المذهب ، الفائق في الأحكام والوثائق ، النظم البديع في اختصار التفريع ، تحفة اللبيب في اختصار كتاب ابن الخطيب ، تحفة الواصل في شرح الحاصل ، المرتبة السنية في علم العربية ، المرتبة العليا في تعبير الرؤيا (103) .

(101) البلوي : 129ب — 130ب ؛ مخلوف : 1 ، 211 ، عدد 736 .

(102) مخلوف : 1 ، 207 ، عدد 710 .

(103) مخلوف : 1 ، 207 — 208 ، عدد 722 .

ومن بين هؤلاء الفقهاء محافظون ومتفتحون مجددون . ويعنون على القسم الأول علما بارزان :

أولهما : الشيخ العالم الصالح المبارك أبو محمد عبد المجيد ابن ابي البركات ابن ابي الدنيا الصدي الطرابلسي . 1210/606 بطرابلس — 1286/680 بتونس . وهو أحد المشايخ الجلة . ظهر أمره واشتهر خبره بمسقط رأسه فاستدعاه ملك إفريقية إلى تونس أين تولّى قضاء الجماعة والخطابة بجامع الزيتونة والتدريس . رحل إلى المشرق . كان له علم بالفقه والأصليين . وهو في أصول الدين متمسك بطريقة الأقدمين . وفي أصول الفقه على طريقة القرويين . ومن ثم كان معارضا ومفارقا لطريقة الفخر وأتباعه في الأصوليين . ومنكرًا علم المنطق . وكان يجلس للإقراء في الفنون الثلاثة بالمسجد وبإسطوان منزله . وله مؤلفات كثيرة منها : العقيدة الدينية ، وشرح جلاء الالتباس في الرد على نفاة القياس ، ورسالة في الحوض على الجهاد ، والايضاح والبيان في العمل بالظن المعبر شرعا بالسنة الصحيحة والقرآن (104).

وثانيهما الشيخ القاضي أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن يوسف بن عتيق الغساني الجزائري . 681/ — 1282/689 — 1291 بتونس . كان فقيها أديبا عالما بالفرائض محكما لصناعة التوثيق . وكان في قضاائه يحب الجري على طريقة سحنون قاضي قضاة المغرب . كما كان المشاركة بالديار المصرية يعلمون بأقوال ابن المواز (105) .

ومن الفقهاء من كان له ولوع بالمنطق واشتغال بالجدل وذلّاء مثل الفقيه الفاضل المتفنن الصدر الأوحّد أبو محمد عبد الوهاب بن يوسف ابن عبد القادر البجائي . 681 — 1282/689 — 1291 بتونس . أخذ بأصول الدين والفقه وبرع في المنطق على طريقة المتأخرين . ولم يكن في وقته أعلم منه بكشف الأسرار .

(104) ابن رشيد : مخط. 1736 — 165 — 166 ؛ الغبريني : 64 — 65 ؛ النيفر : 1 ؛ 69 — 70 ؛ مخلوف : 1 ، 192 ، عدد 645 .

(105) الغبريني : 65 — 67 .

وهو أعلم به من واضعه . رحل إلى بلاد المشرق وأخذ عن أعلام ، وسمع جملة من كتب الحديث . سمع عليه ابن رشيد كتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب ، ومعالم أصول الفقه للفخر الرازي وموطأ الليثي وكانت له معه محاورات . ومن تصانيفه اختصار لشرح ابن التلمساني لمعالم الرازي (106) .

وممن اشتهر بالتجديد والتفتح من الفقهاء التونسيين جمال علماء المغرب قاضي الجماعة المحقق المدرس ابن زيتون أبو الفضل أبو القاسم ابن أبي بكر ابن أحمد بن عبد الرافع اليميني . 1224/621 — 1291/691 . رحل إلى المشرق مرتين ، وانتسب هناك للمدرسة الفاضلية ومدرسة ابن شكر . وقرأ وحصل له علم بأصول الفقه والعقائد الكلامية والفقه والخلاف والجدل والمنطق ، وله مشاركة في الحكمة . وفقهه جار على قوانين النظر والاجتهاد . وهو صاحب رواية واسعة . كان يدرس بالشماعية وبسقيف منزله ابن تقي الدكاكين بالطلاب . ومما قرأ عليه الموطأ والمختصر للعز ابن عبد السلام ، وكتاب الأسامي والغايات في شرح الآيات البينات للفخر ابن الخطيب بشرح السراج الأرموي . وقد أملى من تأليفه أمثلة التعارضات بين فيه أمثلة للمسائل التي وضعها الرازي في المعالم في مدارات الاحتمال بين النقل والمجاز والاضمار والتخصيص ولم يبين لها أمثلة . وهو أول من عرفت عنه كتب الرازي واشتهرت به بإفريقية (107) .

وفي الفقهاء جماعة تزلعت بالفروع كما اشتهرت بالرواية والإسناد للحديث النبوي الشريف مثل الدروال ركن الدين عبد العزيز ابن أبي القاسم الربيعي التونسي . 1333/733 بالقاهرة . فقيه أصولي متفنن في علم السنن . أخذ عن ابن زيتون ، وتفقه بالبرهان وأخيه الشمس الصفاقسين (108) .

(106) ابن رشيد : مخط ، 1737 ، 28 أ — 33 ب ؛ الغبريني : 137 .

(107) ابن رشيد : مخط 1737 ، 9 — 15 ب ؛ الغبريني : 56 ، 57 ؛ مخلوف : 1 ، 193 ، عدد 650 .

(108) مخلوف : 1 ، 207 ، عدد 720 .

ومن الفقهاء اللغويين برهان الدين ابو اسحاق ابراهيم بن محمد القيسي الصفاقسي . 1297/697 — 1343/743 . وهو إمام محقق عمدة . أخذ عن أهل المشرق والمغرب . وعنه كثير من معاصريه . له نوازل في الفروع ، ورسالة في إسماع المؤذنين خلف الامام ، وشرح على ابن الحاجب الفرعي . وبلاشتراك مع اخيه الشمس إعراب القرآن (109) .

وكل هؤلاء العلماء الفقهاء مسند في الأكثر يعتمد في التحمل والتبليغ لمسائل العلم وكتبه المنهج النقلي على طريقة المحدثين . وإن تميزت طائفة منهم بالدراية أو غلبت عليهم فإنهم لا يخلون من الرواية .

ومن اختلف من العلماء بالحديث وإسناده رجال كانوا الأمناء على العلم المبلغين للسنة . وهم ذكران الرجال وفحولهم كما وصفهم الأشياخ . وقد برز في هذا الميدان بمدينة تونس جمهرة منها :

ابو عبد الله محمد ابن حيان الشاطبي . 1239/635 . لقيه ابن رشيد بتونس سنتي 684 — 86/685 — 1287 . وهو فقيه راوية مكثّر ضابط مقرئ موجود . أحد المكثّرين سماعا وتقييدا وتحصيلا لهذا الفن وتجويدا . سمع العالي والنازل واقتنى الأمهات والأجزاء . وكتب بخطه ما لا يحصى . روى عن أعلام من أهل إفريقية . وعن القادامين عليها من أهل الاندلس . فأخذ عن ابي المطرف وابي سحاق ابن عياش وابن الابار وابن الغماز وابن حبّيش . وكانت له قدرة على مداخلة الشيوخ وسماع ما عندهم . لا يحصى عدد شيوخه . واسمه مثبت في الاستجازات البليغية . وقد روى عنه ابن رشيد بأسانيده أحاديث كثيرة ومسلسلات وتحمل عنه جملة من الإنشادات (110) .

ومن الأعلام الذين لمعوا في هذا الميدان شمس الدين ابو عبد الله محمد ابن جابر بن محمد القيسي الواد آشي الأصل . التونسي المولد والاستيطان

(109) مخلوف : 1 ، 209 ، عدد 726 .

(110) ابن رشيد : مخط . 1736 ، 20 ب — 26 ب .

1235/633 — 1349/749 . وهو صاحب الرحلتين إمام المحدثين الفقيه المسند الراوية . تحمل عن جماعة من أهل المشرق والمغرب . وعنه ابن فرحون وابن مرزوق الجدي وابن الخطيب وابن خلدون . له أربعون حديثاً ، وأسانيد كتب المالكية يروونها عن مؤلفيها (111) .

وإلى جانب هؤلاء واولئك أعلام مشاهير كانت مشاركاتهم واسعة ، ومكاناتهم مرموقة ، تهافت عليهم الطلاب وتوزعوا مجالسهم وحلقهم . من بينهم :

الفقيه المدرس المتفطن أبو الشمل جماعة الحلبي . 1231/629 نزيل تونس . لقيه ابن رشيد بتونس 6/685 — 1287 ، وأصله من مسيلة . وإنما اشتهر بالحلبي لطول سكناه بحلب إحدى مدن بلاد الشام عند رحلته إلى المشرق . سمع أهم وأكثر كتب الحديث . وانتصب للتدريس بمدرسة الخطيب ابن برطله الحافلة — بعد وفاته — بباب المنارة . وكان حسن البحث في الفقه على طريقة الجدل (112) .

والامام الفقيه المبرز المتفطن في سائر العلوم ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد النور التونسي . أخذ عن القاضيين ابن زيتون وابي محمد بن برطله . واشتهر بين رجال عصره بتقريراته وإيراداته وكتبه التي منها اختصار تفسير الرازي ، والحاصل والحاوي في الفتاوي (113) .

وقاضي القضاة إمام الفقهاء والنحاة عماد الفتوى وقدوة العلماء الشيخ ابو عبد الله محمد بن عبد السلام الهواري التونسي 1349/749 . هو علامة زمانه المتبحر في العلوم العقلية والنقلية . تولى التدريس وأخذ عنه جماعة بالشماعية والتوفيقية وبممنزله . أخذ عن البطرني وابن هارون وابن جماعة . وعنه

(111) مخلوف : 1 ، 210 ، عدد 733 .

(112) ابن رشيد : مخط ، 1737 ، 101أ — 101ب .

(113) مخلوف : 1 ، 206 ، عدد 717 .

ابن حيدرة وابن عرفه والبلوي وابن خلدون . وقد روي عنه موطأ الامام مالك في مجالس كثيرة بأعلى إسناد متصل في زمنه ببلاد المغرب . وله شرح على مختصر ابن الحاحب الفرعي (114) .

ومن العباد الصالحين والشيخو الزاهدين رجال متبرك بهم . كان لهم عظيم الأثر في التربية والسلوك وتكوين الروح الصوفي . من بينهم :  
الشيخ الصالح عبد العزيز المهدي 1224/625 . دفن مرسى الجراح وتلميذ أبي مدين وابن عربي .

والشيخ أبو سعيد خلف بن يحيى الباجي 1232/628 .

والإمام القطب الصالح السالك أبو الحسن الشاذلي الذي تميز بمدرسته ووظائفه وأحزابه . وتخرج عليه جملة من الأصحاب . وهم خمسون سالكا زاهدا متصوفا . نذكر منهم الشيخ ماضي بن سلطان المسروقي . والقطب علي القرجاني ومحمد الشريف 1268/666 . وعلي الخطاب 1273/671 . وحسن السيجومي . والسيدة عائشة المنوبية 1267/665 (115) .

ومن هؤلاء الشيخ أبو يعقوب بن عقاب . ولد 1217/613 بشاطبة . لقيه ابن رشيد بتونس مرتين 684 - 6/685 - 1287 . ووصفه بالشيخ الصالح الفاضل المقرئ المجود الولي الفقير الصوفي المتخلق . لقي جماعة كثيرة من الشيخو . وأخذ عن جمهرة منهم بمرسية وغرناطة ومالقة وسبتة ومراكش وبجاية . منهم ابن الولي والجزيري وابن قطرال وابن قاسم وابن أبي السداد وسهل ابن مالك وابن أبي الخصال والفارسي . كان يقرأ التيسير . وعليه سمع ابن رشيد الشماثل للترمذي (116) .

(114) البلوي : 16 - 17 أ ؛ مخلوف : 1 ، 210 ، عدد 731 .

(115) برنشتي : 2 ، 322 - 330 .

(116) ابن رشيد : مخط 1736 . 144 - 145 ، 1737 . 25 - 26 أ .

والشيخ أبو محمد عبد الله بن يوسف بن موسى الخلاسي . 1213/610 — 14  
ببلنسية . لقيه العبدري وابن رشيد بتونس . وهو أحد الصالحاء الفضلاء الأولياء  
الأتقياء مع التواضع والخمول ، على معرفة الناس بقدره وفضله ، وتكاثرهم  
عليه وقصدهم إليه . سمع بالأندلس ورحل وحج ونزل بتونس . كان يتحرف  
بالتفسير في منزله ويقصده الناس للتبرك بدعائه وللسماع منه . وكان يروي  
عدة من الكتب الحديثية . وقد أخذ لباس الخرقة على ابن مسدي ، وسمع  
عليه المقدمة المحتسبة بتوصية ذي الخرقة المنتسبة . ومنه سمع ابن رشيد  
مسلسلات كثيرة منها « مسلسل شهدت » و« مسلسل الاسود بين التمر والماء »  
و« مسلسل أطعمنا وسقانا » و« الجبن والجوز » و« إني احبك (117) » .

والشيخ الصالح العالم العامل المعتقد عند العامة والخاصة أبو محمد الرجاني  
التونسي 1300/699 (118) .

والشيخ أبو عبد الله ابن حريز العالم الأديب الولي المتصوف . برع في  
الطرق الأدبية والصوفية ، ونبغ في العلوم النقلة والعقلية . وكان له مجلس  
بداره بتونس يجتمع اليه فيه أصناف أهل العلم ، وطوائف أهل التقى والفهم .  
ومن آثاره مهذب نواسم المدائح ومصب نائم المنائح (119) .

ولم يكن الفقهاء والمحدثون ورجال العلوم النقلة والمتصوفة بالذين أشعوا  
وحدهم بمدينة تونس أو انفردوا ببناء الحياة الفكرية العلمية والذوقية السلوكية  
لأن زمرا من أهل اللغة والأدب والتاريخ قد لمعوا في سماء عاصمة الحفصيين  
ونهجوا للطلاب والمتأدبين طرائق وأساليب مخترعة كان بفضلها إذكاء  
ملكات الإنتاج وتهذيب القرائح ودعم التكوين الثقافي عامة .

(117) ابن رشيد : مخط . 1736 ، 45ب — 56أ .

(118) مخلوف : 1 ، 193 ، عدد 652 .

(119) البلوي : 9ب — 21أ .



أما اللغويون النحاة فإننا نذكر منهم أعلاما بارزة متميزة في مقدمتها :  
ابن عصفور الشيخ الفقيه الأستاذ النحوي اللغوي التاريخي المحصل  
الجليل الفاضل أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي الحضرمي 1201/597  
بإشبيلية — 1271/669 بتونس . قرأ على الشلويين . وخرج إلى بجاية . وعنه  
بها الأمير أبو يحيى وأبو زكريا اليفريني وهو فريد في فنه بإفريقية . له المقرب .  
وشروح عليه وعلى الجمل ، وعلى الإيضاح . وشرح أبيات الإيضاح ، وقسم  
من التفسير (120) .

والشيخ الفقيه النحوي الامام العالم المتفنن أبو اسحاق إبراهيم بن أحمد  
ابن محمد الانصاري الخزرجي الجزري . لقيه ابن رشيد بمنزله بتونس عند  
الصدور . ووصفه « بشيخ الشيوخ وبقية أهل الرسوخ ذي التصانيف الكثيرة  
والمعارف الغزيرة » وذكر من تأليفه كيفية السباحة في بحرى البلاغة  
والفصاحة ، ورفع المظالم عن كتاب المعالم ، ردّ به على أبي المطرف .  
وإيضاح غوامض الإيضاح ، والمنهج العرب في الردّ على المقرب ، وتقصى  
الواجب في الرد على ابن الحاجب ، وتحرير القواعد الكلامية في تقرير العقائد  
الاسلامية . ومنتهى الآيات في شرح الآيات ، والاعراب في ضبط عوامل  
الاعراب ، وإيجاز البرهان في بيان اعجاز القرآن ، وتحرير الدلالات في  
اثبات النبوات ، وترغيب العباد في الخوض على الجهاد ، والقوانين الجليلة في  
الاصطلاحات الجدلية ، والتنبيه على ما زخرف من التمويه في علم البيان  
المطلع على اعجاز القرآن (121) .

والشيخ الاستاذ المقرئ اللغوي النحوي أبو جعفر أحمد بن يوسف بن  
علي بن يوسف الفهري اللبلي . 1217/613 بلبلة — 1292/691 بتونس . أخذ  
عن الشلويين والأعلم وابن لب . ورحل إلى المشرق . ثم دخل بجاية واستوطن

(120) البريني : 138 — 190 : مخلوف : 1 ، 197 ، عدد 665 .

(121) بن رشيد : مخط. 1737 ، 62 — 63 ب .

تونس إلى أن مات فكان من أساتذة إفريقية . له فهرست به جميع أسماعته وشيوخه بالاندلس وسبته وبجاية وتونس والاسكندرية ومصر ودمشق . ومن تصانيفه : شرحه الكبير المستوعب للفصيح ، واختصاره ، والبغية في اللغة ، وكتاب الافعال ، وكتاب في التصريف ، ورفع التلبس على حقيقة التجنيس ، والعقيدة الفهرية ، ووشى الحلل في شرح الجمل . وقد ذكر ابن رشيد في رحلته نبذة مفيدة من مروياته (122) .

والشيخ الفقيه العالم ابو العباس النقاسي التلمساني . رحل عن بلده إلى إفريقية . فكان من بين علمائها الناقل السديد والناقد الشديد والعالم المديد والمدرس المفيد . فهو الأديب النحوي والعروضي البياني والحكيم المنطقي والأصولي الجدلي والعددي الفرضي . درس من الكتب مصنفات له منها : الروض الاريض في علم القريض ، وتلخيص رسالة إحكام صناعة الكلام للوزير ابن عبد الغفور ، وتلخيص مشكل الحديث لابن مدرك ، وحديقة الناظر في تلخيص المثل السائر ، وشرح كتاب المصباح لابن مالك ، وإيضاح السبيل إلى القصد الجليل في علم الخليل شرح قصيدة ابن الحاجب العروضية (123) .

وأما الأدباء فكثير بإفريقية منهم الوافد والأصيل . وقد اشتهر في هذه الحقبة من بينهم :

الشيخ الفقيه المجيد العالم الجليل تاج الأدباء أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن أحمد ابن عميرة المخزومي . 1187/582 بجزيرة شقر — 1261/659 بتونس . تهادته الدول فتولى الكتابة في الأندلس ، والقضاء بأريولة وشاطبة ثم بسلا ومكناسة من العدو ، وبقسطنطينة وقابس بإفريقية . ودرس ببجاية . وهو الراوية الكثير السماع للحديث الكاتب الشاعر

(122) ابن رشيد : مخط ، 1736 — 27 ، 35 ؛ الغبريني : 211 ؛ مخلوف : 1 ، 198 .

(123) البلوي : 21 — 24 .

صاحب الرسائل البديعة التي استحق بها التنويه والتقديم . له كتاب التنبهات على ما في التبيان من التموهيات وضعه ردًا على كتاب التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن للزملكاني . وكتاب التنبيه على المغالطة والتمويه ، وإقامة الممال عن طريق الاعتدال بالبرهان الكافي والبيان الشافي ، وكائنة ميورقة وتغلب العدو عليها ، واقتضاب من تاريخ في المريدين ، وتعقيب على معالم الرازي ، ومجموعة من المواعظ (124) .

وتلميذه الشيخ الجليل الاديب الناظم الناصر العلامة الناقد المتفنن والفقيه الحافظ القاضي أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن يونس بن يحيى بن غالب بن حبش . أصله من مرسية ومنها انتقل إلى بجاية ثم استقر بتونس . لقيه ابن رشيد مرتين في الورود والصدور . ونوه به وبعلمه الواسع . وذكر من شيوخه ابن الولي والرفا والشاطبي وابن محرز وسهل بن مالك وابن عسكر الملقبي وابن قطرال وابن أبي السداد وابن الحاج التجيبي والماردي وابن واجب القيسي وابن أبي الغصن وابن القرشية وابن برطله وابن عميرة وابن أبي الخير وابن أبي غالب وابن الأصفر وابن صهيب . وأجازه جماعة من المشاهير لم يلقهم مثل الشلوبين والدباج والأسدي الرندي وغيرهم . وقد جمع له مشيخته الحافلة تلميذه أبو العباس الأشعري . وقرئت عليه بمنزله كتب منها : ملخص القابسي والأمثال لأبي أحمد العسكري . وله أشعار بديعة كثيرة أغلبها في تسبيح الباري ومدح للنبي صلى الله عليه وسلم . ومن ذلك :  
الخدائق النيسانية والطرائق الحسانية : تخميس مراثي حسان للرسول صلى الله عليه وسلم وتخميس معارضتها لابن أبي الخصال .

وفوائد الزمان وفوائد الجمال : وهي ثمان مغصنات على الشقراطسية .

والعقيلة الحالية والوسيلة العالية : تخميس معراج المناقب ومنهاج الحسب الناقد لابن أبي الخصال .

وسجانية النجار ورحمانية المستجار : تخميس قصيدة محمد بن يوسف النجار السبتي .

وبراعة المظنب وضراعة المذنب : 360 بيتا مربعة وقد تقنن فيها ضروبا فجعلها مخمسة ومسدسة ومسبعة ومثمثة .

وثرء العديم وشفاء السقيم في الجمع بين التسبيح والتسليم وتسديسها بالتحيات الإعجازية والأريحيات الحجازية .

وسقيا السحابة في عليا المصطفى والصحابة .

والجواهر المنتظمة لأسمى حلى والزواهر المبسمة بأهمى ولي : وهي تعشير قصيدة حبيب : « ما للدموع تروم كل مرام » .

والقراة المرضية في تخميس القصيدة النحوية للتوزري

ومقطعات كثيرة في هذا الفن ، وفي الزهد لا تحصى كثرة (125) .

والشيخ الأديب الحسيب الفاضل السري الكامل أبو الحسن علي بن محمد ابن أبي القاسم ابن محمد بن محمد ابن أبي بكر بن رزين التجيبي . من أهل مرسية انتقل منها إلى سبتة ثم إلى بجاية واستقر آخر الأمر بتونس . أخذ عن عدد كبير من الشيوخ في مقدمتهم : القاضي ابو القاسم أحمد بن نبيل وابن أبي السداد والقارجي وابن القرشية وابن الجنان والعتيقي والكناني وابن الابار وابن السراج وأبو المطرف وابن الجلاب وغيرهم . وقد كان يقرأ عليه معجم ابي علي الصديقي ويسمع الحديث وينشد الأشعار (126) .

ومن الأدباء التونسيين والشيوخ اللامعين الكاتب الحافل المتفنن الفاضل الكامل ابو الفضل محمد ابن ابي الحسن علي بن ابراهيم بن محمد بن أبي

(125) ابن رشيد : مخطوط : 1736 ، 1 - 9 ، 1737 ، 33 - 54 ب .

(126) ابن رشيد : مخطوط : 1737 ، 64 ، 83 .

القاسم التجاني . كان ابن حبيش يظهر العناية به ويثني على بديع أدبه ورفيع طلبه ويسميه « واصل الغاية » . وقال ابن رشيد : « ما رأيت في نجباء أبناء الإفريقيين أجمع منه لفضيلة ولا أبرع في كل خصلة نبيلة وخلة جلييلة مع عفاف وكفاف . يتصرف كيف يشاء في الروية والارتجال ، مديد الباع فسيح المجال . له مشاركة في النحو واللغة والبيان . وتقدم في الكتابة والخطابة . وله حشر الأمم الخالية ونشر الرمم البالية ، والحلل المضمخة في حلي المشيخة ، وشرف الطرف في طرف الشرف ، والدر المنظوم » . وهو إلى فرط أدبه وبارع نثره ونظمه معني بالرواية مستجيز للشيوخ . وصلته من أهل سبته إجازات كثيرة بعث له بها صديقه ابن رشيد (127) .

ومن الادباء البارزين والكتاب المؤرخين جماعة منهم :

نور الدين ابو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملاك ابن سعيد الغرناطي . 1213/610 — 1286/685 بتونس . وهو الواسع الرحلة الشهير الذكر ذو الخطوة العالية والمنزلة الرفيعة لدى المستنصر الحفصي . له عيون المستنجز وعقلة المستوفز ، والرقصات والمطربات ، والطالع السعيد في تاريخ بني سعيد ، والمغرب في حلي المغرب ، والمشرق في حلي المشرق ، والقدرح المعلى في التاريخ المحلي ، وبسط الارض في الطول والعرض ، والغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة ، إلى نحو من ستة وأربعين كتابا (128) .

والشيخ الفقيه الصالح المحدث الخير الأديب ابن السكن ابو العباس أحمد ابن محمد بن ميمون الاشعري المالقي . سمع وأجيز له . واستجاز واستجيز له . صحب كثيرا من العلماء ، وتردد إليهم كابني الزيد . والمرجاني والخلاسي وغيرهم . كان له بيت بالمسجد فيه كتبه يبكر فيه . وهو الذي جمع مشيخة ابي بكر ابن حبيش . وأكمل ميزان السابقين وحلية الصادقين المصدقين في

(127) ابن الخوجة : أبو الفضل التجاني .

(128) مخلوف : 1 ، 197 — 198 عدد 668 : العيادي .

ذكر الصحابة الاكرمين لابي الربيع سليمان ، وأكمل تذييل ابن فتحون  
على الاستيعاب ، وله ايضا الاطلاع على ما يلزم في رفع الايدي في الصلاة  
من الاتباع (129) .

والشيخ الفقيه المتقن التاريخي المدرس المحدث ابو العباس أحمد بن  
محمد القرشي الغرناطي . 1293/692 بتونس . كان يحفظ تاريخ الطبري وشرح  
القرآن للعلبي . وكان أعلم الناس بالكتب المصنفة وأحفظهم لأسمائها .  
وله المشرق في علماء المغرب والمشرق (130) .

وأعلاهم كعبا في هذا الباب وأبرعهم وأكملهم وابدعهم قاضي القضاة  
الحافظ الفقيه الأديب المتبحر في سائر العلوم ولي الدين أبو زيد عبد الرحمان  
ابن محمد ابن خلدون الحضرمي . 1332/732 بتونس — 1404/807 بالقاهرة .  
فهو إلى آثاره الكثيرة ومصنفاته المختلفة مثل شرح البردة وتلخيصه لكتب  
ابن رشيد ، ومصنفه في المنطق ، وتآليفه في أصول الفقه والحساب وتلخيصه  
لمحصل الفخر الرازي ، صاحب التاريخ المشهور السير والعبر ، وواضع  
مقدمة الفائقة التي خرج بتأليفها عن صف الأخباريين ليكون بها الناقد  
التاريخي والعالم الاجتماعي بلا شك او نزاع (131) .

والظاهرة المعتمدة التي تميز بها أكثر رجال العلم في هذا العصر بإفريقية  
العناية بالخط وتجويده . وربما كان من اليسير أن نضرب لذلك مثلا بالقاضي  
الأديب الفاضل شرف الدين أبي العباس أحمد بن عبد الله ابن معطي المعروف  
بابن الامام الجزائري 1287/685 . فإن ابن رشيد الذي لقيه عند الصدور  
بتونس قال في ترجمته : « أحد المسندين الفضلاء والبارعين من رواة الأدباء  
مع براعة الخط والتفنن في أنواعه على الطريقة الشرقية . وقد ذكر انه كان

(129) العبدري : 267 ؛ ابن رشيد : مخط. 1736 ، 66أ .

(130) الغبريني : 212 — 213 ؛ مخلوف : 1 ، 199 ، عدد 672 .

(131) ابن خلدون : التعريف ؛ مخلوف : 1 ، 227 — 228 ، عدد 818 .

يختار لكتابة العقود التي ترفع إلى أمير تونس أهلة الشهور في ليالي الارتقاب «  
وورد في رسمه من الرحلة أنه كان معنيا باقتناء نفائس الكتب بخطه وبغير  
خطه ، وكان لا يفارق أيام الجمع سوق الكتبيين . وأن محمد بن عمر السبتي  
قال له ذات يوم وهو يطلعه بمنزله على جملة من الكتب بخطه وبغير خطه —  
وقد اعجب بحسن تصرفه وبديع تلاعبه بأنواع الخط : « يا سيدي ما رأيت  
أبرع من هذا الا كتابا رأيته بسوق الكتبيين بدمشق » ووصف الكتاب .  
فتأوه الشرف تأوه المفجوع وحكى قصة الكتاب وهو نسخة من المثل السائر  
كانت أيضا بخطه استوهبها منه الملك الناصر (132) .

وكان منهم إلى جانب ذلك جماعون للكتب مثل صاحبنا المتقدم .  
والاستاذ النحوي الأديب الفاضل الفقيه أبي العباس أحمد بن يوسف بن  
يعقوب الكتاني الذي اختص بابن عصفور ولازمه وترجم له بكتاب الدر  
المنثور في أخبار ابن عصفور (133) . وقد كانت توجد عند هذا الشيخ في ذلك  
الوقت النفائس الفرائد . وكان طيب النفس بها يعيرها لبعض أصحابه للاستفادة  
والانتفاع بها (134) .

فبأمثال هؤلاء العلماء الأعلام من تونسيين وأندلسيين ومغاربة كانت تزخر  
تونس في العصر الذي نؤرخ . وهم بتنوعهم بين مفسرين ومحدثين وفنهاء  
وأصوليين ونحاة وأدباء ومؤرخين اختاروا تونس قاعدة ومستقرا لهم —  
جعلوا من هذه العاصمة الحفصية الأولى اكبر مركز ثقافي في بلاد المغرب  
وبر العدو يقع وسط الطريق بين أطراف البلادين الشرقية والغربية .

ولانستطيع أن ننكر الدور العظيم الذي لعبته تونس في الحياة الثقافية بحكم هذا  
التلون العجيب وتلك الحيوية الفائقة . ولئن توفقت الدراسات العلمية منذ قرن

(132) ابن رشيد : مخط 1737 ، 155 — 61 ب .

(133) ابن رشيد : مخط 1737 ، 89 — 95 ب .

(134) ابن رشيد : مخط 1737 ، 36 ب — 37 أ .

إلى الكشف عن أسرار العبقريّة الفذة لشخصية ابن خلدون المؤرخ فإننا نأمل للدراسات السائرة المنكبة على كشف وتحليل ونقد آثار رجال هذا العصر بإفريقية وللدراسات المقبلة المتناولة لهذا التراث أن تبرز الشخصيات اللامعة المغمورة من فقهاء ومحدثين ولغويين وأدباء ، وتتوصل بإحياء آثارها وتحليلها لخدماتها الجليلة إلى توضيح معالم مجهولة وإمالة الستار عن المؤثرات الفائقة لها في المحيط التونسي والمغربي وخارجه في بلاد المشرق . ومما يحملنا على فرض ذلك وتقديره أن التراث الاسلامي عموما والمغربي خصوصا والتونسي بالأخص لهذه الفترة وما يلحق بها لم يجد العناية الكافية حتى الآن ليحكم له أو عليه ، وأنه لولا المستشرقون الذين سبقوا إلى الكشف عن ابن خلدون ولفت النظر إليه لما كان له من الشأن ما له بيننا اليوم . وأنا لنأمل أن تتواصل الجهود العلمية وتؤتي ثمارها في ميدان الدراسات الاسلامية لبلاد إفريقية والمغرب ، وأن تظهر البحوث التحليلية للشخصيات العلمية التي طواها التاريخ وتبرز آثارها بل تأثيراتها في المغرب والمشرق ، ومدى إسهامها وابتكارها في الانتاج العلمي والفكري .

ولعل من دلائل الخير ومظاهر هذا الإسهام في الحياة العلمية والأدبية في المحيط الاروبي ما أشار إليه الاستاذ برنشتيقي في تاريخ إفريقية الحفصية حين نسب إلى عهد أبي زكرياء الاول استمرار حركة الترجمة والنقل ، من تونس إلى أوروبا عن طريق صقلية وجنوبي ايطاليا للمعارف العلمية والفلسفية القديمة والمغربية، وما كان لتونس من تأثير أدبي على المقيمين بها من الاغراب الاروبيين مثل ريمون مارتان وريمون لول وما ظهر من انطباعات جدّت في الأدب والفكر الكتلاني الاسباني عند أمثال انسا لم تورميذا المعروف بعبد الله الترجمان (135) .

(135) برنشتيقي : 1 ، 468 - 472 ، 2 ، 365 .



## ثبت المراجع

- أدوات بيتي : العلاقات الثقافية بين اسبانيا وإفريقية في القرنين 13 و 14 .  
مجلة معهد الآداب العربية عدد 127 . الفصل الاول 1971 .  
الصحف 93 — 122 .
- بال (أفراد) : الدين الاسلامي ببلاد البربر . باريس 1938 .
- برنشتي (روبارت) : افريقية في العهد الحفصي . باريس 1940 — 1947 .  
مجلدان .
- برنشتي (روبارت) : بعض الملاحظات التاريخية بشأن المدارس بتونس .  
المجلة التونسية 1931 . 261 — 285 .
- ابن بطوطة (ابو عبد الله الطنجي اللواتي) : الرحلة .  
البلوي (ابو البقاء خالد) : تاج المفرق في تحلية علماء المشرق . مخط احمدية .  
دار الكتب الوطنية . تونس .
- بيتتي : انظر أدوات
- النجيبي (ابو القاسم الاندلسي التلمساني) : الرحلة . مخط النجارية . دار  
الكتب الوطنية . تونس .
- ابن جبير (محمد بن احمد) : الرحلة . بغداد 1937 .
- حازم القرطاجني : قصائد ومقطعات . تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن  
الخوجة . تونس 1972 .
- ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن) : التعريف بابن خلدون . نشر محمد بن  
تاويت الطنجي . القاهرة 1951 .
- ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر  
في أيام العرب والعجم والبربر . مصر 1284 . 7 مجلدات .

ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن) : المقدمة . طبع مصطفى محمد . مصر .  
ابن الخوجة (محمد) : تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد . تونس 1939 .  
ابن الخوجة (محمد الحبيب) : أبو الفضل التجاني كما يصوره ابن رشيد في  
رحلته . النشرة العلمية للكلية الزيتونية . عدد 1 ، 1972 ،  
257 — 294 .

ابن الخوجة (محمد الحبيب) : قصة الكتاب التونسي . سلسلة مقالات بالعمل  
الثقافي . 1968 .

الدباغ (عبد الرحمن بن محمد الانصاري) : معالم الايمان . تونس 1320 .  
4 مجلدات .

الدولاتلي (عبد العزيز) : تونس الحفصية . رسالة علمية .  
ابن ابي دينار (محمد بن ابي القاسم الرعيني) : المونس في أخبار افريقية  
وتونس . تونس 1967 .

ابن رشيد (محمد بن عمر) : ملء العيبة . مخط 1736 ، 1737 الاسكوريال .  
الزركشي (محمد بن ابراهيم) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . تونس 1966 .  
الزركلي (خير الدين) : الاعلام . القاهرة . 10 مجلدات .

السراج (محمد بن محمد) : الحلل السندسية في الأخبار التونسية . تقديم  
وتحقيق الحبيب الهيلة . تونس 1970 . الجزء الأول .  
4 مجلدات .

ابن شريفة (محمد) : أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره .  
الرباط 1966 .

الشماع (أحمد) : الأدلة البينة التورانية على مفاخر الدولة الحفصية . تونس .  
العبدري (محمد بن محمد الحيحي) : الرحلة المغربية . تقديم وتحقيق محمد  
القاسي . الرباط 1968 .

- عبد المولى (محمود) : الجامعة الزيتونية والمجتمع التونسي . رسالة علمية .  
أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم القيرواني) : طبقات علماء افريقية  
وتونس . تقديم وتحقيق علي الشابي ونعيم الحسن اليافي .  
تونس 1958 .
- العمrani (عبد الله) : جامعة القرويين . مجلة البحث العلمي . سنة 4 ،  
عدد 11 . 12 . ماي وديسمبر 1967 .
- العيادي (محسن) : ابن سعيد . رسالة علمية باشراف كامل جمعة .  
الغبريني (ابو العباس احمد) : عنوان الدراية في علماء بجاية . الجزائر 1910 .  
القرطاجني : انظر حازم .
- ابن قنفذ (احمد بن الحسين) : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية . تقديم  
وتحقيق الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي . تونس 1968 .
- مارسي (جورج) : تونس والقيروان . باريس 1937 .
- مخلوف (محمد بن محمد) : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . القاهرة  
1349 . مجلدان .
- المقري (ابو العباس) : الازهار . تحقيق وتعليق مصطفى السقا وابراهيم  
الايباري وعبد الحفيظ شلبي . القاهرة 1939 — 1942 .  
3 مجلدات .
- النعيمي (عبد القادر بن محمد) : الدارس في تاريخ المدارس . تحقيق جعفر  
الحسيني . دمشق 1948 — 1951 . مجلدان .
- النيفر (محمد) : عنوان الاريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب .  
تونس 1351 . مجلدان .

## OUVRAGES FRANÇAIS CITES EN REFERENCE

Abdelmoula (Mahmoud). — L'Université Zaytounienne et la Société Tunisienne. Thèse de doctorat, dirigée par Maxime Rodinson.

Bel (Alfred). — La Religion musulmane en Berberie XII-XX siècle, Paris, 1938.

Brunsechving (Robert). — La berberie orientale sous les Hafside. Paris, 1940-1947, 2 t.

Brunsechving (Robert). — Quelques remarques historiques sur les Mederssas de Tunisie. Revue Tunisienne 1931, pp. 271-285.

Doulatli (Abdelaziz). — Tunis Hafside. Thèse de doctorat.

Marcais (Gorge). — Tunis et Cairouan. Paris, 1937.

Odette (Petit). — Relations intellectuelles entre l'Espagne et Ifriquiya au XIII et XIV siècles. Ibla, 127, 1er trimestre 1971, pp. 93-122.